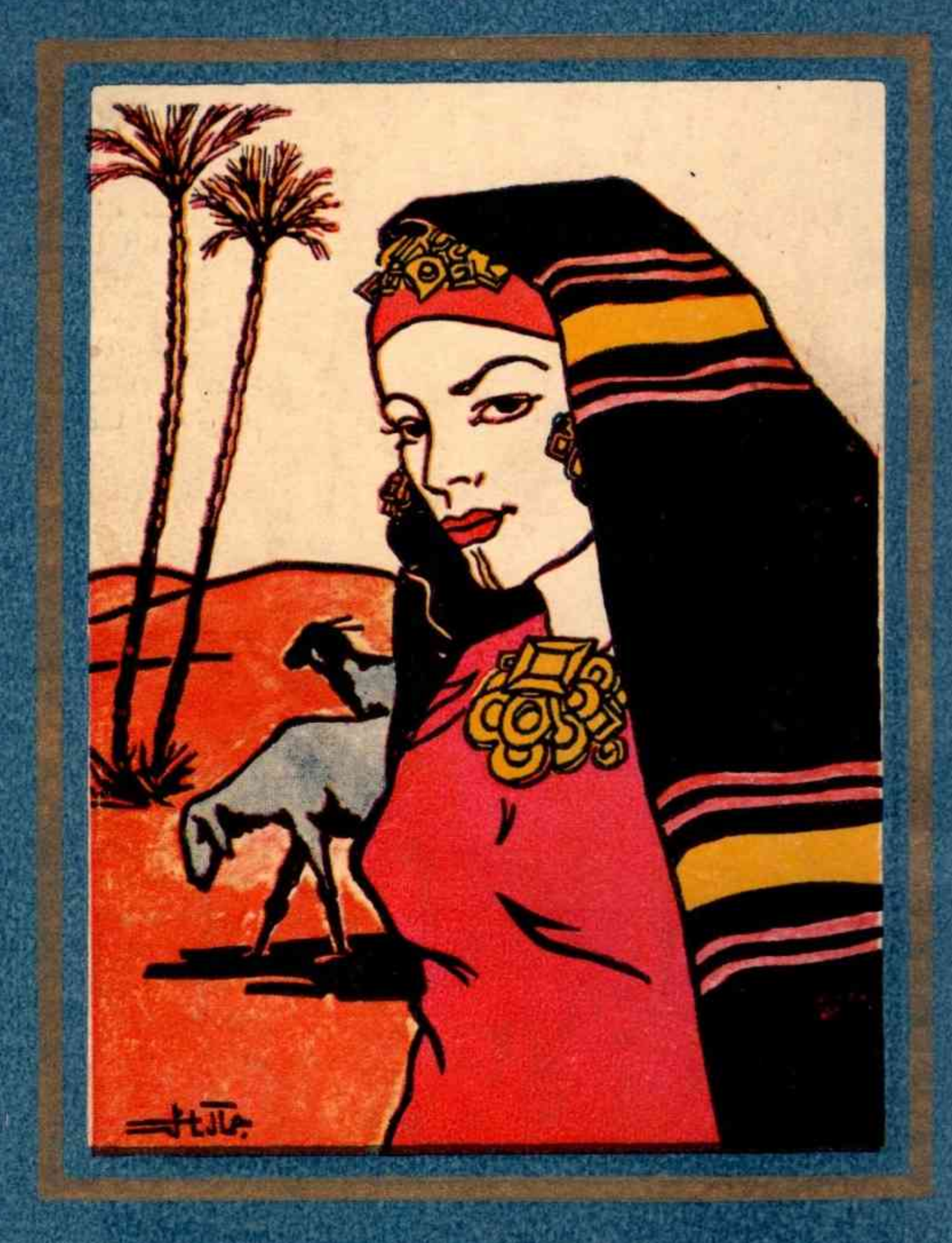
الكتاب الذهبي

محمد فريد أبو حديد



أزهار الشوك



محمد فريد ابو حديد

- ولد فى اول يوليه سنة ١٨٩٣
- تخرج فى مدرسة المعلمين العليا سنة ١٩١٤
- حصل على ليسانس الحقوق من الخارج سنة ١٩٢٤
- قراءاته المحببة الادب قديمة وحديثة ولا سيما الاوربى ثم التاريخ .
- أول محاولاته فى الكتابة كانت فى القصة الصغيرة
- كانت حركة سنة ١٩١٩ باعثا قويا على تتبع تاريخ الحركة القومية والثقافة العربية الى اصولها البعيدة
- أول قصة طويلة نشرها هى قصة صحائف من حياة سنة ١٩٢١ وتلتها « ابنة المملوك » و « ميسون الغجرية »
- كتب سيرة السيد عمر مكرم سنة ١٩٣٧ عقب مقاعدة ١٩٣٦
- توفر على كتابة القصص الطويلة حول اشخاص تاريخ الادب العربى وفيها انفعالات معكوسة من حياتنا وهى الملك الضليل وزنوبيا والمهلهل وعنترة وآلام جحا . ما بين سنة ٣٩ و ٤٥ .
- يشرف على تحرير «سلسلة اولادنا» التى تصدرها دار المعارف
- كتب « أزهار الشوك » و «الوعاء المرمرى » بين سنة ٤٨ و ٥٠ .
- منح جائزة الادب العربى «للقصة الطويلة » فى عام سنة ١٩٥١
- يكتب الان قصة « انا الشعب »
- له من وفرة النشاط وفتوة الروح ما يجعله شيخ الشباب او فتى الشيوخ .

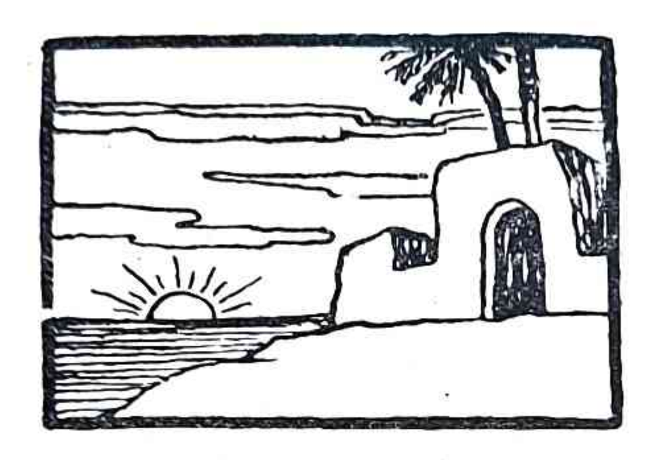
محمد فريد أبو حديد

أزهار الشوك

الكتاب الذهبى

يصدره نادى القصة
العدد الحادى عشر ـ ابريل ١٩٥٣

- ١ -



كانت ساعة الظهيرة عندما بلغ فؤاد أطراف القرية وكانت البركة الخضراء تلمع ساكنة تحت الشمس ، يخفف من حرها نسيم خفيف يجعد سطح الماء . وكان سرب من الاوز يسبح متصايحا فى اركانها ، وعلى جانبها بعض اطفال عراة من ابناء القرية المجاورة يتمرغون فى التراب حينا ويغطسون فى الماء حينا اخر ، ويملئون الفضاء ضحكا وضجيجا .

وكان على جانب آخر من البركة كلب ناعس يتكىء برأسه على يديه ممدودتين فى استرخاء ، والدجاج يتواثب حوله ينبش الطين باحثا عن الطعام ، فيثير حوله سحابة رقيقة من غبار .

وكانت قرية النجيلة من وراء البركة عن يسار الطريق ، تدرج صاعدة على نشز من الارض ، حتى يطل أعلاها على اسفلها ، وما بين ذلك طرق ضيقة ملتوية تتعرج فى تلافيف صاعدة من دار الى دار . فكانت القرية تبدو من بعيد كأنها قلعة ، وتلوح من قريب قطعا من بناء مكدس فوضى . وكان فيما يلى البركة عن اليمين فضاء فسيح يتخذ اهل القرية جانبا منه (جرنا) ويعقدون فيه اسمارهم ويحتفلون باعراسهم ويتفسحون فيه فى ليالى الصيف القمراء . وكان

يحف بذلك الفضاء اجم من النخيل يلقى عليه فى الصباح ظلا ويخلع على منظره رونقا ، ولكنه كان فى الليل يلوح للاعين رهيبا يتحامى اهل القرية السير فيه خوف ان تعترض سبيلهم (الارواح) . وكان الى جانب النخيل كوم احمر (كفرى) يمد ذراعا نحو فضاء (الجرن) ويترامى من ورائه صاعدا ويزيد عرضا كلما قرب من طرفه البعيد .

وكان الفلاحون يتخذون من تراب الكوم سمادا لارضهم ، ولهذا تركوه مهشما مضطرب السطح ، بين حفر غائرة واضراس بارزة ، وعلى وجهه حطام مختلف الالوان بين قطع حمراء وزرقاء من الآجر والفخار ، وعظام من جماجم او ضلوع .

وكانت دار الافندى متنزهة عن القرية الى اليمين يهبط اليها الطريق من حافة البركة على مسيرة دقائق بين الحقـــول الخضراء . وهى بسيطة البناء يحيط بها سور من شجيرات ملتفة شائكة تحجب الانظار عنها ولا تحجب منظر الحقــول عمن فى داخلها . وكان فى ساحة الدار بستان يتخذه الافندى حقلا يزرع فيه ما يحتاج اليه من خضر وبقول ، وفيه ساقية تظللها شجرتان من الجميز ، ومن حولها بعض كروم ونخلات واشجار شتى مبعثرة فى غير نظام .

كان الافندى فى شبابه موظفا ، ثم غادر الوظيفة ، وآثر ان يعتزل فى الريف ، فاشترى قطعة من ارض تجاور قرية النجيلة وبنى بها تلك الدار ليقيم فيها مع زوجه ، وليس لهما سوى ولد وحيد يخطو الى حدود العشرين فى كلية الحقوق . فاذا اتى الصيف انتظر الوالدان وحيدهما فى لهفة ليمــلأ عليهما الحياة فى معتزلهما البعيد .

وكان فؤاد ابن الافندى يقيم بالقاهرة مدة العام مع بعض لداته من طلاب العلم فى منزل مستأجر ، حرص ابوه على ذلك ، على غير رغبة من امه التى كانت تود لو اقام فى بيت من بيوت أخواله ، فقد كان حسنى أفندى يرى رأيا لا يرضى ان ينزل عنه فى تربية وحيده ، ولم يحدث له يوما ان ندم على رأيه ، اذ مضى فؤاد فى دراسته موفقا . فكان فى كل عام يراه اذا عاد اليه كأنه عود طيب ينمو يانعا مزهرا .

واقبل فؤاد من القاهرة حتى بلغ القرية ، وكان يركب بغلة ابيه تسير به فارهة مطمئنة الظهر وعليها سرج ملون من نسيج الاعراب ، ومن ورائه ثلاثة من اهل العزبة يحملون حقائبه .

فلما بلغ الدار نزل عن البغلة واسرع داخلا يثب فى خطواته حتى قفز سلالم المدخل واخذ بيد ابيه يقبلها . وكان الوالد جالسا فى صدر البهو ، فلما لمح ولده قام اليه يستقبله ، وقبله بين عينيه قائلا :

ـ أحمد الله على سلامتك .

وخرجت الام فاتحة ذراعيها فضمت ولدها دامعة العين وهى ضاحكة . وقالت له وهى تربت :

ـ لقد نحفت يا فؤاد .

ثم دخلوا الى الدار يستمتعون بالشمل المجتمع بعد فراق عام طويل ، ودار فؤاد حول اركان الدار كأنه يستعيد عهدها ، وقضى مع والديه ساعة يقص عليهما انباءه ويستمع فى شوق الى احاديثهما حتى أعدت مائدة الغداء ، وكانت الام قد حشدت لها كل ما عرفته شهيا عند وحيدها .

ولما هدأ فؤاد بعد العصر ، خرج الى المنظرة يريد ان يرى من هناك . فكل من فى العزبة اصدقاء قدماء رأوه صغيرا ، ثم فتى يافعا ، ثم رأوه بعد ذلك شابا ، وهو اذا حل بها كأنه عاد الى كل بيت من بيوتها . وكان يعرف انهم سيأتون اليه واحدا بعد واحد اذا فرغوا من عمل النهار ، وكان به حنين الى أن يراهم جميعا .

وأول من لقيه من اهل العزبة رحومة البدوى المرح الكسول .

كان رحومة أو (عبد الرحيم) شيخا فى السبعين ، ولكنه اعجوبة فى الشيوخ . كان يسير عارى الصدر حتى فى أشد الايام بردا ، ولا يلبس الا ثوبا من القطن الخفيف الازرق يشتريه فى كل عيد فلا يخلعه الا فى العيد الذى يليه ، فاذا اشتد البرد فى ليالى الشتاء التحف بحريم من الصوف يتخذه فى الليل غطاء ثم ينحيه عنه اذا حميت شمس النهار . فهو

يجعله زينته اذا استقبل زائرا وبساطة اذا اكرم ضيفا ، ومظلته اذا آذاه حر الشمس . وكان يسير مستقيم الظهر ويحب أن يجرش الفول بأسنانه البيضاء ، فاذا رأى زكيبة منه أسرع اليها ليصيب منها قبضة يجرشها فوله بعد اخرى . وقد تزوج من نساء عدة من فقيرات الاعراب ، ولكنه لم يعقب منهن ذرية سوى تعويضة ، وكانت فتاة فى السابعة عشرة اذ ذاك .

ولكنه كان كسولا فأحب شيء عنده ان يستلقى فى ظل النخيل ظهرا أو يعرج على حلقة من الناس يشارك فى حديثها . وكان مرحا ظريف المجلس فما يكاد يمر بجمع حتى يدعوه ليستمعوا الى آخر أخباره . وكان يترك حقله لامرأته وابنته ، ولهذا كان لا يكاد يجد الكفاف من العيش . فاذا تذمرت امرأته فقذفته بما شاءت من قول ضحك ساخرا وانصرف عنها بكلمة لاذعة . ولكن ابنته كانت تحبه ، فاذا سمعت أمها تعنفه وقفت لها تدافع عنه فى حماسة ، وترد عليها تعنيفها .

وكان رحومة مع فقره متكبرا يكاد يكون غطرسا فى بعض الاحيان . كان لا ينسى أنه حر بدوى من أحرار بدو لا ينبغى لهم الا أن يكونوا حيث خلقهم الله . وكان يرى المال عرضا لا قيمة له فى قيم الرجال ، فقد يكون غنى اليوم فقيرا فى الغد وقد يكون الفقير من بعد غنيا ، ولكن المرء نفسه يبقى كما خلقه الله .

والناس عنده صنفان ، فمنهم البدوى ومنهم غير البدوى ، وما كان ينسى أن يشكر الله اذ خلقه بدويا .

ولما رآه فؤاد داخلا ناداه من أقصى (المنظرة)

ـ أين أنت يا رحومة ؟

فصاح بصوته القوى :

ـ مرحبا !

وأسرع فى مشيته ليلقاه مادا يده مصافحا . وكانت تحية حارة من مصافحة مكررة على طريقة الاعراب : ايش حالك ! ايش لونك ! وسأله فؤاد عن أخباره فجعل يقص عليه من

الانباء ما ادخره فى عامه وقص عليه نبأ سجن (سلومه) .

كان فؤاد يعرف عبد السلام أو (سلومة) كما يسميه أهل ذلك الريف على طريقة الاعراب . كان الناس يسمونه الصقر أحيانا او الذئب أحيانا ، ففيه شبه لا شك فيه من الصـــقر والذئب معا . كان فارسا فى حلبات (البرجاس) فى موالد الاولياء ، وكان مبارزا ماهرا بالعصى ، اذا نازل أقرانه هـزم أمهرهم واحدا بعد واحد ، وكان يستطيع ان يضع الرصاصة حيث شاء من الهدف الذى يرمى اليه .

وكان شابا نحيفا يضع على رأسه عمامة صغيرة فوق (لبدة) ويلف أعلى جسمه بشملة بيضاء من صوف ، وكان فى أول أمره فى عزبة الافندى ثم اتصل به أحد أعيان الريف المجـاور واسمه ابراهيم ميسور فحبب اليه أن يكون عنده ، وكان ذلك الرجل يستكثر من مثله ليكونوا له اتباعا . فانتقل سلومة اليه مع أمه وأخيه، ومع ذلك كان بين حين وآخر يزور الافندى محافظة على مودته القديمة . ولكنه لم يبق على عهده الاول ، فكان اذا سار أمام البيوت يخطر معجبا ، ويتخذ فى ملبسه زينة المترفين فما لبث أن رأى من الافندى انقباضا عنه فصار لا يزوره الا لماما . وما مضى عليه الا أعوام يسيرة فى عزبة ميسور حتى تبدل تبدلا عجيبا ، فقد ضرى فى زهوه حتى صار فاتكا ، يسطو بمن يخاشنه ، لا تأخذه بأحد رحمة ولا تدفعه عنـــه رهبة . ثم تمادى فى فتكه حتى كان الناس كلما اجتمعـــوا جعلوا حديثهم همسا عن آخر ما جناه .

ولكن أهل القرى كانوا يتحامونه ولا يجرؤون على أن ينموا عليه . وكان ابراهيم ميسور يدفع عنه أذى الاقـوياء ، واذا أجرم جريمة أسبل عليه جاهه وأقام له محاميا حتى يبرئه .

وأخذ (رحومة) يقص على فؤاد نبأ الرجل الذئب وماحدث بينه وبين سيده ميسور من القطيعة ، فحكى له كيف انقلب (سلومة) على صديقه القوى فكشر له عن نابه ، فلم ينم عنه ميسور حتى بعث به الى السجن ليلقى جزاء جرائمه .

ولم يخل قلب فؤاد من الاسف عندما تمثل صورة ذلك

الرجل وهو يطارد اقرانه رشيقا خفيفا فوق فرسه فى حلبات السباق .

وسأل رحومة قائلا :

ـ وماذا فعلت أمه وأخوه ؟

فقال رحومة :

ـ جاءوا الى هنا .

فقال فؤاد راضيا :

ـ أود أن أراهما .

فقال رحومة : لاشك انهما آتيان للسلام .

فقال فؤاد :

ـ وكيف حال تعويضة ؟

فقال الرجل ضاحكا :

ـ كما تركتها فى العيد .

وتذكرها فؤاد فى يوم العيد السابق اذ أهدى اليها ثوبا من القطن زاهى اللون فضحكت قائلة :

ـ أألبس هذا ؟

فما كانت تعويضة ترضى سوى ثوبها الاسود تتخذ له حزاما من الصوف الاحمر من نسج امها . فاشترى لها فؤاد ثوبا اسود من قطن فى حرير . فلما لبسته جاءت الى الدار تهنىء سيدتهابالعيد ، وكان (فؤاد) جالسالى جانب الساقية تحت ظل الجميزة يقرأ فى كتاب . فحيته قائلة :

ـ تعيش لكل عام يا حاج فؤاد .

وكانت هذه طريقتها فى خطابه . وما زال صوتها يرنفى اذنه عذبا وهو يسأل عنها اباها .

كانت تعويضة كأنها زهرة برية يانعة ، لها عينان سوداوان نجلاوان وانف جميل فيه حلقة من قضة . وكان تحت فمها الحسن وشم يمتد من اسفل شفتها الى ذقنها . ولها بشرة سمراء صافية تعلوها حمرة . أرأيت زهرة البر اذا تفتحت فى خميلة شعثاء فى شعب من شعاب الصحراء ؟ هكذا كانت تعويضة تبدو اذا لبست ثوبها الاسود ومن حول وسطها حزامها الاحمر . وكان صوتها عذبا اذا نطقت بلهجتها ،

وتنطلق فى حديثها هادئة كالنسيم حينا وثائرة كالعاصفة حينا ، لا تختلج من تكلف او حياء ، ولا تتعثر من تردد او خوف ٠

وكان فؤاد يحس لها ميلا ولا يملك كلما رآها ان يبسم لها ، ويرتاح الى سماع ندائها اذا نادته يا حاج فؤاد ٠

وكان كلما اتى الى العزبة فى الصيف يقضى كثيرا من وقته فى (غيطها) يساعدها فى عملها ٠ وكانت الارض هنـــاك كثيرة النجيل ، فكانت هى وامها لا تكادان تغيبان عن الحقل ساعة كأنهما تجاهدان هذا النجيل جهادا ٠ فاذا ذهب فـؤاد الى حقلها جعل يقلع معها النجيل حينا او يحول الماءمنالمساقى لرى خطوط القطن او يعزقه معها اذا جفت الارض ٠ وكان ذلك يثير فى الناس عجبا فى اول الامر ، حتى لقد تهامســوا فيما بينهم عنه وعنها ٠ وبلغ الحديث الى ابيه ففاتحـــه فيه فقال لابيه ضاحكا : » لعلى احب ان اتزوجها يا ابى « ٠ فأمسك عنه ابوه فلم يعد الى كلمة اخرى مثلها ، بل لقد صار اذا رآه مقبلا ساعة الظهيرة محمر الوجه تبسم له قائلا :

» هل فرغت من عملك فى حقلها ؟ «

وكان فؤاد يجيب فى ابتسامة هادئة متحدثا عما كان منه فى يومه ٠

وكان فؤاد بعد هذا يرى تعويضة فى ليالى القمر اذا اجتمع اهل العزبة فى الفضاء المجاور للدار٠ كانت تحيىحلقة السمر الساذج ،فترقص رقصة الاعراب فى (الصابية) ، تخطـر رشيقة فى الحلقة والاكف ترن واصوات الانشاد الصاخبـة تدوى من حولها ٠

وكانت صورتها كلما خطرت لفؤاد بدت له كأنها لوحة من لوحات الفن الجرىء أو صورة من صور الشعر الوحشى فى عصر مضى ٠

ولكنه لم يسأل نفسه عما يحسه نحوها ، فانما كان يراها معجبا بحسنها كما يعجب بزهرة يانعة على حافة ترعة ٠

ومضى رحومة يتحدث فى مرح عن تعويضة ، وفؤاد يستمع اليه فى اهتمام :

لقد تجرأ محمود بن خضرة فجاء اليه يخطبها . ولم يرض رحومة ان يذكر اسم والد الفتى ، الشيخ عبد المقصـــود شيخ البلد فى قرية النجيلة ، متعمدا ان ينسبه الى امـــه تحقيرا وازدراء . وكان محمود فتى يرضاه اهل النجيلة جميعا اذا طلب اليهم ان يكون صهرا ، ولكنه كان فلاحا وما كان ينبغى له ان يجرؤ على مصاهرة رحومة البدوى . فرده رحومة ردا عنيفا ، ولم تخل تعويضة من الغضب عنـدما ذكر ابوها اسم الفتى لها . وسأله فؤاد عن أخى سلومة ، فانطلق رحومة يثرثر عنه ، وكان حديثه مرحا عاطفا .

كان اسمه عبد القوى ، ولكن رحومة نطق اسمه (قوية) على طريقة الاعراب لانه كان مثله بدويا . وكان فى نحـــو الخامسة والعشرين عندما عاد الى العزبة بعد ان ذهب اخوه سلومة الى السجن رهن القضاء ، جاء هو وامه مبروكة فاتخذا لهما خيمة الى جانب الكوم الاحمر . ورحب بهما الافندى لانه عرف قوية صغيرا ، وكانت مبروكة امه امرأة طيبة حلوة اللسان كريمة ، فلما عادت الى العزبة بعد ان بعدت عنها بعض سنوات لقيت من كل اهلها ارتياحا وبشاشة .

وأخذ (رحومة) يصف قوية وما فيه من شبه بأخيه فى قامته وهيئته وفى فروسيته وفتوته ، ولكنه لم يكن مثل اخيه غطرسا مزهوا ، ولم يكن مثله شيطانا مرعبا . كان ينشـــد شعر البدو بصوت ملء مطرب ، ويهز حلقات السمر ضـــحكا بألاعيبه الرشيقة وتندره المعجب ، وكان فؤاد لم يره منـــذ سنوات ولم يعرف فيه شيئا مما تحدث به رحومة ، فحبب اليه ذلك الحديث ان يراه .

وتوافد اهل العزبة على الدار ونزل الافنـــدى يستقبلهم مرحبا ، فتنحى رحومة الى ركن بعيد يجرش الفول ، وامتلأ البهو بالزائرين بين شباب وكهول ، وجاء من قرية النجيلة آخرون ليهنئوا الافندى بســـلامة ولده . وكانت أكواب الشاى تدور على الضيوف فى خلال الاحاديث دورا بعد دور . وأدرك فؤاد فى ذلك المجلس كل ما غاب عنه من اخبـــار ريفه فى مدة العام الطويل .



رأى فؤاد بعد ذلك قوية وكان لم يره من سنين . كان ممدود القامة عريض الصدر ضخم الهامة ، ولكنه كان طلق المحيا واسع العينين يبعث مظهره الثقة . وأنس اليه فؤاد منذ رآه وقربه فوجده خفيفا الى الخدمة سريعا الى الاستجابة كلما اراد أن يجول فى الريف جولة . فكان يستصحبه كلما أراد نزهة فى الكوم الاحمر أو ذهب الى الصيد فى المناقع ذات الاعشاب الطويلة على حوافى الحقول . وكثيرا ما كان يصاحبه فى الليالى التى يسهر فيها الفلاحون عند امتلاء الترع ليدركوا فرصة رى الزرع قبل ان تمضى مدة (النوبة) .

ونشأت بينهما على الايام مودة تشبه ان تكون صداقة . وكان قوية فى كل تلك الجولات مرحا وثابا خفيف الروح يعرف اسم كل عشب وكل زهرة وحشرة ويطرب لمشاهد الارض والسماء فى حماسة معدية فكان فؤاد يطلع فى صحبته على محاسن لم تبد له من قبل فى مناظر الطبيعة الشعثاء ، وأعداه منه طربه اليها حتى صار يتذوق كل ما فيها ، حتى لقد اصبح يطرب الى الموسيقى الوحشية التى تنبعث فى هدأة الليل من اصوات الضفادع والحشر او نعير السواقى .

وكان قوية يعرفه بمواقع النجوم فى المساء وقبيل الصباح ، ويسمى له اسماءها ويقص عليه قصصها ، اذ كانت تعيش على

الارض قبل ان تصعد الى السماء .
وكان فؤاد يذهب معه احيانا الى خيمته فيستمع الى احاديث امه اذ تحكى لهما قصص قومها فى موطنها الاول بمريوط ، وتجعل قصصها تفوح بعطر النرجس البرى الذى ينبت على جوانب كثبانها . كانت تحدثهما احيانا عن غارات قبائل البدو ومصارع ابطالها ، واحيانا عن نجوى احباب الصحراء تحت ظلال النخيل فى جوار العيون المتدفقة .
وكان فؤاد فى بعض الاحيان يطيب له أن يقضى الليل عنده ، فيمهد له قوية فراشا فى جوار خيمته فيقضى ليلته تحت السماء ، حتى اذا استيقظ فى الصباح مسح الطل عن وجهه وهب نشيطا يجوس خلال الحقول قبل مطلع الشمس، يعجب بلآلاء عقود الندى فوق نسيج العناكب ، ويملأ صدره من الهواء البليل الذى يفوح بروائح اعشاب البر السابحة فى الفضاء .
وكانت مبروكة تعد له فى الصباح طعاما من عصيد أو رقاق مبسوس فيعجبه طعامها كما تطربه حفاوتها .
هكذا قضى فؤاد فى العزبة شهرا لا يكاد صاحبه ينقطع عنه يوما . ثم جاء اليه قوية ذات مساء وكان على غير عادته كئيبا، فلما سأله عن أمره قال له :
ـ غدا محاكمة أخى .
وكان فؤاد قد نسى فى تلك المدة ذكر سلومة اخى قوية ، فلم تخطر له منه خاطرة . وكان قوية كذلك لا يورد ذكره فى أثناء جولة او مجلس كأنه كان يتعمد ذلك تحرجا من ذكره. وشعر فؤاد بشىء يشبه ان يكون خجلا ، اذ كان يكلف الفتى أن يصحبه ويمرح معه ولا يذكر ان له فى السجن اخا يستحق مواساة اخيه . وعجب من قوية اذ كان يراه فى تلك الايام مرحا طروبا كأن قلبه لم يعرف فى حياته حزنا أو ألما ، ولم يدر أكان الفتى يحس الالم ويخفيه أم أنه كان كوحش البر ينسى الطعنة بعد ان يلعق موضعها .
فقال له بعد لحظة من صمت :
ـ أذاهب أنت لتراه ؟

فأجاب قوية كأنه حسب سيده يلومه :

ـ انه اخى !

وأطرق حزينا . فمد فؤاد يده الى كتف الفتى قائلا :

ـ سنذهب معا .

فرفع قوية رأسه فى دهشة وقال :

ـ لا تكلف نفسك هذه المشقة ياسيدى ، فانما جئت اليك معتذرا من تخلفى عنك غدا .

وتحرك قلب فؤاد عندما استأذن الفتى يريد ان يذهب فقال له :

ـ أتذهب اليه وحدك ؟

فقال :

ـ ستسافر أمى معى .

فقال فؤاد فى دفعة :

ـ بل أذهب معكما .

فرفع قوية يده الى عينه فمسح دمعة فيها وقال بصوت متهدج :

ـ أشكرك يا سيدى . لا تكلف نفسك هذا العناء .

فقال فؤاد :

ـ لا عناء على فى هذا . ألا تحب أن أكون معكما ؟

فصمت قوية حينا ثم قال مترددا :

ـ كيف تريد أن تذهب معنا لترى سلومة ؟

فأجاب فؤاد :

ـ ـ أليس أخاك ؟

فقال حزينا :

ـ انه أخى ! ولست أعرف الا أنه الذى ربانى وأحبنى وأكرمنى .. ولكنه سلومة الذى كان يرعب الناس جميعا . كان يسبل حمايته على وعلى أمى ، ولكن الناس سيتحدثون عنك اذا ذهبت معنا .

وسكت لحظة كأنه ينتظر حكما .

فأجاب فؤاد :

ـ أعد لى ركوبتى فى الصباح

فلم يزد قوية على أن قال فى صوت خافت :

ـ شكرا لك يا سيدى !

فلم يجب فؤاد وقد داخله من قول الفتى ما يشبه أن يكون حزنا . وفكر فى حال هذين البائسين قوية وأمه ، اذ يقفان فى حبهما مع الرجل الذى أجمع الناس كلهم على مقته .

وقضى صدرا من الليل فى خيمة قوية مستمعا الى حديثه وحديث أمه عن سلومة الذى أحباه . فلما عاد الى داره كان يتطلع الى الصباح حتى يرى ذلك الفاتك المروع الذىتجتمع عنده ميول شتى من المقت والمحبة معا .

وبكر ليدرك القطار الاول مع قوية وأمه ، وكانت الام تحمل تحت ذراعها صرة فيها هدايا لولدها . ومضى القطار الصغير يتبختر ويهتز وسط الحقول الخضراء ، ومبروكة لا تفتأ تتحدث عن سلومة الذى كانت تحبه ولا ترى فيه سوى فلذة كبدها . كان حبها مثل حب الكلب لصاحبه لا يبالى ما هو سوى أنه صاحبه ، فهو يحبه اذا كان سكيرا أو قاتلا أو لصا أو نذلا ، ويرقد تحت قدميه ويترقب عودته من ليلته السوداء . فاذا رآه هب يتمسح به ويلعق وجهه حبا . ولو وقف العالم كله معاديا لذلك الصاحب البشع لما تزحزح الكلب عن محبته ولوقف الى جنبه يقاتلهم جميعا .

وكان قوية حزينا مطرقا يختلس نظرات من فؤاد وهو يستمع الى حديث أمه كأنه يرقب حركة وجهه متلهفا .

ولما بلغوا جانب السجن آخر الامر رأوا عربة سوداء عند بابه ، وعلى مقربة منها جمع من نساء ورجال فى ثياب قاتمة ، يجلسون القرفصاء على الارض فى ظل شجرة . وأفاق فؤاد عند ذلك الى نفسه ، فرأى أنه قد أقبل مع شاب مسكين وأمه لكى يروا سجينا وهم وقوف عند باب سجنه .

ودب اليه شىء من العجب كيف دفعه الفضول الى مثل هذا الموقف المزرى ، وداخله شعور يشبه أن يكون ندما ، فما كان ينبغى له أن يقف هكذا مع كل هؤلاء .

ورأى مبروكة وهى تهتز وتحاول ان تخفى ما بها ، ثم رآها تذهب نحو حارس الباب مترددة . فناداها قوية :

ــ الى أين يا أمى ؟

فهمست له وهى تلمس الصرة التى تحت ذراعها .

ورأى فؤاد أنه واقف على مقربة منهما لا يفيدهما شيئا ولا يدرى ماذا ينبغى له حيالهما . أيتركهما حتى يفرغا من أمرهما كما يتهيأ لهما ؟ أم يذهب مع المرأة الى حارس الباب فيقول له انه جاء معها لعله يظهر له اعظاما فيساعدها على ايصال الصرة الى ولدها السجين ؟ وأحس فى نفسه حنقا شديدا ، اذ يقف هناك كأنه أحد أولئك الجالسين تحت الشجرة فى صغار . ولكنه لم يتحرك لشىء ووقف ينظر الى من حوله كأنه يلهـــو بمنظر فى مأساة .

وأراد قوية أن يجذب أمه عن الباب قسرا ، ولكنها امتنعت عليه فى قوة كان من العجيب أن تكمن فى مثلها .

وفى تلك اللحظة سمعت صيحة من وراء الباب الاســـود فانفلتت الام من ذراع ابنها وأسرعت تستقبل مبعث الصيحة . وكانت عيناها مفتوحتين لا تطرفان كأنها تنتظر جلادها . وفتح الباب وخرج منه جندى فى يده سلاحه ، فلما رأى المرأة وابنها قريبين صاح بهما :

ــ الى أين ؟

فوقفت المرأة فى مكانها خاشعة ومدت يدهـــا بالصرة الى الجندى وقالت له كلمات بصوت خافت .

فصاح بها الجندى بصوت أجش ينهرها ، فأخـــذها قوية يجذبها من ذراعها وهى تتكفأ وتتعثر . وثار الـدم فى رأس فؤاد وهو واقف فى مكانه شاعرا بما يشبه ان يكون اهانة . أليست المرأة معه ؟ ولكنه مع ذلك وقف جامدا .

وخرج من الباب جندى بعد آخر ثم جاء من بعدهم رجال ، من بعدهم رجال فى ثياب السجن حائلة اللون ، وسار الجنود يحفون بهم عن يمين وشمال ومن وراء وأمام يحملون السلاح مشرعا . ورفعت مبروكة عينيها الى الوجوه تتفرس فى ملامحها

وهب من كانوا تحت الشجرة وجعلوا يتصايحون بين عويل النساء وبكاء الصبية وضجيج الرجال . واقترب فؤاد من الجمع يدفعه دافع شديد الى رؤية وجه سلومة . أكان ما يزال فى هيئة البشر ؟

كان وهو يسير نحو السجناء يدفعه ميل عجيب كمن يريد أن يطلع على وحش فى قفصه من وراء قضبان الحديد وصاحت مبروكة مولولة فى صوت ممزق :

ـ ولدى !

ورفعت يدها بمنديل اسود الى مؤخر عنقها تحركه يمنة ويسرة مع صراخها . فعض فؤاد على أضراسه جزعا وهوينظر الى سلومه .

كان رجلا طوالا متين البناء له جبهة مثل جبهة أخيه ، وصدر عريض وعينان واسعتان يشع منهما بريق . ونظر نحو أمه بوجه متحرك ترددت عليه مسحة من رقة فى لحظة قصيرة ولكنه عاد فتجهم ووقف رافعا قامته الفارعة ، وهم برفع يديه كأنه يريد ان يحطم القيود التى تغلهما . ثم حول بصره الى ناحية أخيه مسرعا وخيل الى فؤاد أن نظرته لانت قليلا فعلت وجهه سحابة رقيقة تشبه الابتسامة ثم عبس مرة أخرى . حدث ذلك كله فى لحظات لا تزيد على ثوان ثم تحول كأنه ينزع نفسه قسرا . ومضى فى خطوات سريعة واسعة حتى بلغ العربة السوداء فاندس فيها . وتمثلت لفؤاد عند ذلك صورة ذئب كاسر ينزوى فى قفصه مكشرا ، واجتمع فى قلبه شعور مختلط مضطرب من اشفاق ورهبة .

وثارت الام وتزايد صراخها ووثبت وثبة تخلصت بها من ذراع قوية كأنها تريد ان تلحق بولدها .

وصاحت تولول : ولدى !

فصاح بها الجنود ينهرونها وهم يغلقون باب العربة ، وأدركها قوية ليحجزها ، فارتمت على الارض وجعلت تتخبط وتتدأدأ كأنها تريد أن تحطم عظامها .

ولم يدر فؤاد ماذا يصنع ولا كيف يحتال فى موقفه المحرج

الذى دفعه اليه الفضول والتسرع ، واعتراه ذهول يمتزج به الحنق والخجل • فما زال فى موضعه ساكنا حتى تحـــركت العربة وسارت تحمل من فى جوفها • وكان لابـد له من أن يشرب الكأس حتى ثمالتها • فانتظر الى أن استطاع قوية أن يدفع أمه ويسير بها وقذفت الام بالصرة التى كانت تحملهـا نحو باب السجن كأنها جاءت بقربان من زهر تضعه عند قبر • وساروا فى الطريق صـــامتين والام تكتم عويلها حتى بلغوا المحكمة فوقفوا عند بابها • ولم يستطع فؤاد أن يصبر فـوق صبره فترك صاحبيه حتى يفرغا من أمرهما وذهب الى مقهى قريب فجلس به خائرا • ولم يدر ما صنعت مبروكة المسكينة عندما سمعت الحكم على ولدها ، ولكنه كان يسمع من بعيـــد صراخا مختلطا بين حين وحين كلما صدع القضـــاء بأمر من أوامره • وقضى الامر بعد حين وعاد السجناء الى العربةالسوداء فسارت تحملهم فى جوفها نحو الافق المجهول • وخرج قوية مع أمه يسندها وهى متهالكة ، فلما وقعت عين فؤاد عليه هز رأسه سائلا فى صمت ، فأجاب قوية بصوت مخنوق :

ـ مؤبد !

فمد يده الى ذراع الام صامتا يساعد ولدها على اسنادها ، ثم دعا مركبة لتحملهم الى العزبة ، وقد هزه اليوم هزا عنيفا • ولما حكى لابيه ما كان فى يومه قال والده :

ـ لقد عرفت سلومة من قبل يا ولدى •

قالها فى رنة أسف عميق وأطرق حينا قصيرا ثم قال :

ـ ومع ذلك فقد عرفته من بعد قاسيا عنيفا كأنه اعصار • ولست أدرى كيف تجتمع هذه الخصال كلها فى طبيعــة واحدة •

كان سلومة اذا لجأ اليه ضعيف أعانه ، واذا نزل عليـــه ضيف بالغ فى اكرامه ، ولكنه كان اذا لم يجد ما يقدمه لضيفه لا يتردد فى سرقة ما يقيم به الوليمة •

فقال فؤاد :

ـ لقد رأيت فيه شبها عجيبا من أخيه ٠

فقال الوالد :اذن فحاول ان تجنب أخاه مصيره ان استطعت٠ حاول أن تجعل منه انسانا ٠ ان أكثر من تذهب عنهم الانسانية هم هؤلاء الذين لم يجدوا أحدا يأخذ بيدهم يا ولدى ٠

وتمنى فؤاد لو استطاع ، فقد مست هذه الكلمات قلبه ٠

وذهب الى الخيمة بعد الاصيل ليرى كيف حال مبروكة ، فرأى أهل العزبة عندها يواسونها فى مصابها ، كأن سلومة لم يكن لكل ريفهم رعبا ٠

وقالت تعويضة وهى تربت كتفها :

ـ هل السجن الا للشجعان يا خاله ؟

ووقعت الكلمة على سمع فؤاد وقعا ثقيلا ٠أهذه هى تعويضة الحسناء تتكلم ؟

- ٣ -



أخذ فؤاد يحس فى نفسه شعورا جديدا كان يزيد كلما مر عليه يوم . كانت تعويضة فى أول الامر لا تزيد فى نظره على زهرة برية عند شاطىء ترعة ، أو فى خميلة برية فى شعب من شعاب الصحراء . ولكنه صار يجد كل يوم ميلا قويا يدفعه الى الذهاب نحوحقلها وان لم يكن فى الحقل مايدعو الىذهابه. كان من قبل يخيل الى نفسه أنه يساعدها ويرحمها ويضحك ساخرا اذا بلغه ما يتهامس به الناس عنه وعنها . وكان يذهب الى حقلها كما يذهب الهواء وشعاع الشمس ، على سجيته غير متحرج . ولكنه أصبح يشعر شيئا من الحرج ويكاد يود لو لم تقع عليه عين فى طريقه اليها . ولكنه كان لا يملك مقاومة ميله فيذهب نحوها متعللا بالعلل . فاذا سمع منها لفظا وجد صداه يتردد فى سمعه بعد أن يعود ، فيزنه ويسترجعه ويحاول ان يدرك ما ينطوى فيه .

وأخذ يسأل نفسه أيرضى أبوه عنه لو عرف ان وحيده ينظر الى تعويضة فى مثل هذا الجد ! لقد حدثه أبوه عنها مرة فيما مضى ، فلم يزد على أن ضحك قائلا : « لعلنى أتخذها لى زوجة يا أبى » فهل كان يضحك ساخرا لكى يخفى حقيقته عن أبيه

أم كان يحاول أن يخدع نفسه ويخفى الحقيقة عنها ؟ وتدسس فى خفايا نفسه حتى لمح فى أعماقها أمنية جريئة ٠

كانت تعويضة فتاة لا تقل عن سائر الفتيات ذكاء وحسنا وظرفا ، بل لقد كانت أكثر ممن عرف منهن فى ذكائهاوحسنها وظرفها ٠ وأصبحت تحرك قلبه كما لم يتحرك نحو فتاة أخرى من قبلها ٠ أما كان يستطيع أن يسمو بها وأن يخلق منها٠٠ ؟ وأمسك عن المضى فى التفكير كأنه اصطدم بما لم يقو على مقاومته وماذا يستطيع أن يخلق منها ؟

ان هذا الوشم الذى كان يزين ما تحت شفتها الى ذقنها الجميل قد خالط دمها فلا سبيل الى محوه عنه أبدا ٠ ولعل ازالة ذلك الوشم كان أهون عليه من ازالة وشم آخر أعمق منه أثرا ٠ لقد كانت كلماتها اليه بروكة ترن فى أذنه كلما تذكرها اذ قالت لها : « وهل السجن الا للشجعان يا خالة ؟ » ٠ أكان يستطيع أن يخلق من هذه الفتاة ما يريد ؟

كان كل شىء فى تعويضة جميلا فى عينه وان كان لا يشبهه فى العالم جمال آخر ٠ كان جمالا وحشيا ترضاه العين أو ينجذب اليه الحس كله ٠ كان قوة عنيفة ، كما ينبغى للجمال الوحشى أن يكون ٠ ولكنه مع ذلك كان من عالم آخر غير عالمه بغير شك ٠

وكان فؤاد فى كل ما جد فى نفسه من تعويضة وما حدث به نفسه عنها وما تردد فيه من تحرج وخشية ، لا يستطيع أن يمنع نفسه من الذهاب اليها ليملأ عينيه منها ويتنسم الهواء الذى يفوح بعطرها ٠

هكذا مر عليه أكثر الصيف وهو أشد ما يكون متعة فى مقامه ٠ وذهب يوما الى تعويضة وهو يجاذب نفسه حتى بلغ جانب حقلها والقى اليها تحيته ، ثم سأل نفسه : فيم جاء اليها؟ وكانت ترعى قطعة من غنم لها فى حوافى الحقل فتركتها وأسرعت اليه تستقبله قائلة :

ـ مرحبا بك يا حاج فؤاد ٠

ثم لمست جانب طرحتها لتخفى وجهها الباســـم وما كانت تفعل ذلك من قبل ٠
وكان صوتها على عهده ناغما وقوامها بديعا ويحيط بوسطها حزامها الاحمر وتتدلى ضفيرتاها الطويلتان على صدرها ٠
فقال ولم يجد ما يقوله :
ـ كيف حالك وكيف حال غنمك ؟
فضحكت قائلة :
ـولدت نعجتى اثنين ذكرا وأنثى لم تضع نعجة مثلهما ٠
ثم عادت مسرعة الى غنمها وهى تقول :
ـ تريث حتى تراهما ٠
ودخل الى الحقل وراءها حتى لقيها مقبلة بالسخلين أحدهما أبيض لا شية فيه والاخر مرقط ببياض فى ســـواد ٠ وكانا رشيقين كأنهما خشفا ظبية تجمعهما تعويضـــة اليها وهمـا يتواثبان ويثغوان فى فزع ، وهى تضحك وتحاورهمـا حتى انفلتا منها ٠
فقال فؤاد يضاحكها :
ـ وماذا سميتهما ؟
فأمالت رأسها فى خفر ونظرت اليه نظرة باسمة وقالت :
ـ لم أسم الانثى ٠
فقال فؤاد :
ـ والاخر ؟
فكركرت ضاحكة وهى تقول :
ـ قوية !
وكانت ضحكة خارجة من أعماق قلبها !
وخفق قلب فؤاد اذ سمع قولها وصاح :
ـ قوية ؟
ثم تمالك نفسه فأمسك وملأ عينيه منها كأنما لم تقع عليها عينه قبل تلك الساعة ٠ فرآها فتاة لا زهرة ٠ فتاة مليحـــة ممشوقة القوام غضة الشباب لدنة العود مملوءة حياة ومرحا ٠ ولو أطاع نفسه فى تلك اللحظة لاندفع نحوها فطـــواها بين

ذراعيه متلهفا ٠

ثم قال :

ـ أهذا الحمل قوية ؟

فاحمر وجهها عندما أجابت : أليس مثله شيطانا ؟

فقال كأنه يعاتبها :

ـ أراه حملا ظريفا ٠ ويا ليتك سميته باسمى ٠

فنظرت نحوه فى دهشة وقالت كالمعتذرة :

ـ ليس قدر المقام يا حاج فؤاد ٠

وأحس عند ذلك بالجدار القائم بينهما ، فلم يكن هو وحده الذى يعرف البون الذى يفصل بينهما ٠ واستعجل الذهـــاب فحياها وعاد يسير نحو الدار ونفسه تنازعه أن ينظر الى الوراء نحوها ٠ فلما بلغ البيت استقبله أبوه أول شىء فتبســـم له قائلا :

ـ كيف وجدت حقل تعويضة اليوم ؟

وارتبك للمرة الاولى فى حديث أبيه وقنع من الرد بابتسامة وتمتم بألفاظ لم يكد هو يعرف معناها ٠

وأحس كأن حملا ثقيلا أزيح عن كاهله عنـدما تركه أبوه وخرج من الدار نحو البغلة التى كانت عند الباب ليركبها فى جولته التى تعود أن يجولها كل يوم حول المزرعة ٠

ودخل فؤاد الى الدار فقضى بها سائر يومه ، فلمـــا أتى الليل قضى صدرا منه يطل على الفضاء من نافذةغرفتهوالظلام الدامس يلف الارض وتلمع فيه النجوم وضاءة ٠ وسأل نفسه: ما ذلك الذى تغير فيه ؟ بل ما ذلك الذى تغير فى كل ما حوله؟

ومع ذلك فانه مضى فيما كان فيه ، يرى تعويضة فى ليالى القمر فى حلقة السمر تخطر فى رشاقتها ، ويراها فى الحقل تزينه بطلعتها ، وتدخل الى الدار أحيانا فكأن شعاعا من النور ينفذ فيها ٠

ولما اقترب الصيف من نهايته لمح فؤاد فى قوية تغيرا ، اذ كان كلما رآه ذاهبا الى غيط تعويضة ينفلت الى خيمته داخلا واذا رآه فى ليلة من ليالى السمر يحدثها أو يضاحكها يطرق

بعد مرحه ويلوذ بالصمت حتى تمضى الليلة وينفض السامر وهو صامت · وقد رآهما مرة يقبلان معا من الحقل يسيران بين النخيل ، وكان هو آتيا من القرية تجاههما ، فما كاد يراهما حتى عاد أدراجه فاندس بين البيوت فغاب فيها · وكان فؤاد مع هذا يرى أن الفتى لايلبث أن ينبسط بعد انقباض ويعود الى ما اعتاد من مرح وطلاقة ، فيراجع عنه نفسه ويعنف فى لومها ويحسب أنه كان واهما · وهم أن يسأل الفتى مرارا عما بدا له منه ، ولكن كبرياءه حالت دون هذا، وأخذ يتلمس له الاعذار فى بدواته ، فقد كان مثله جديرا بأن تكون له بدوات ·

وذهب معه فى عصر يوم من الايام فى جولة بالكوم الاحمر، وكان قوية على عادته مرحا ينشد شعره ويغنى ويصيح كلما عثر على قطعة من خزف أو رأس محطم من تمثال أو قرص صدىء من نقود · وكان يصور حول كل شىء من ذلك قصصا من خياله وينطلق فى تندره مفاكها · ثم عثر على تمثال صغير كامل من خزف مطلى بدهان أزرق ، فوثب صائحا ومسح عنه التراب فلمع فى ضوء الشمس كأنما قد فرغ منه صاحبه منذ ليلة · ومال على فؤاد هامسا :

ـ أما انها لتميمة نادرة ·

فتبسم فؤاد وأخذ التمثال منه فجعل يقلبه فى كفه معجبا بحسن صنعته ، وينظر الى الكتابة الغريبة المنقوشة عليه · وأراد أن يحتفظ به لما فيه من ابداع فقال لقوية :

ـ أتسخو نفسك لى بهذا ؟

فقال الفتى :

ـ هو لك ·

وخيل الى فؤاد عند ذلك أنه وجم قليلا · وحسب انه قد يحتاج الى ثمنه فقال له :

ـ سأبذل لك فى ثمنه جنيها ·

فقال قوية :

ـ وما حقى فيه حتى آخذ له ثمنا ؟

فقال فؤاد مازحا :

– اذن خذه فاتخذه تميمة ·
فقال الفتى :
– بل أظنك أنت فى حاجة اليه ·
ولو وجده فؤاد باسما او مازحا لغضب من قوله ، ولكن قوية كان يكلمه جادا ·
فانفجر فؤاد ضاحكا ووقف مكانه ناظرا اليه فى شىء من الدهشة قائلا :
– وما حاجتى الى التمائم يا قوية ؟
فقال قوية فى سذاجة :
– ألست تحب أن تكون لك ؟
فصاح فؤاد :
– ومن هى ؟
فقال قوية مترددا : تعويضة ·
فصاح فؤاد :
– تعويضة !
فأجاب الفتى :
– وهل عجب ان تتخذ تميمة تحببك الى مثلها ؟
وأحس فؤاد شيئا من الغضب يسرى اليه عندما قال :
– خذ تميمتك فلا حاجة بى اليها ·
فقال الفتى جادا :
– وهل كنت لاقتحمها عليك ؟
فسكت فؤاد كأن صدمة اصابته · وخيل إليه ان الفتى يكشف له من نفسه ما كان يحاول ان يخفيه هو عنها ·
فقال الفتى كأنه يعتذر :
– أليست تعجبك ؟
فقال فؤاد :
– وهبها تعجبنى ·
فقال قوية :
– اذن فمن أكون أنا حتى اتعرض لها !
ولو أطاع فؤاد نفسه لصفع الفتى وتركه حيث هو ومضى عنه فلا يراه مرة اخرى ، ولكنه تمالك نفسه وقال له :

ـ اسمع أيها الاحمق . أليس يعجبك منظر الزهرة ؟
فقال قوية ولمع وجهه :
ـ وهل هى كذلك عندك ؟
فقال فؤاد :
ـ هى كذلك . وما أنظر اليها الا كما انظر الى كل هذا .
وأشار بيده اشارة شاملة الى الحقول والسماء والفضاء.
ولكن صوتا فى داخله كان يراجعه ويتهمه بأنه يدارى الحق ويخفيه .

وارتاح الفتى الى قوله ارتياحا ظاهرا ، وانطلق فى مرحه ووضع التمثال فى جيبه مترقفا وقال :
ـ اذن سأجعله تميمتى .
وسأله فؤاد فى سيرهما :
ـ أأنت تحبها هكذا ؟
فقال قوية فى صوت متهدج :
ـ لقد كنت أمنع نفسى عنها وأجحدها من أجلك . ولكنى كنت أراها نورا لعينى . فكنت كلما تصورت أنك تحول بينى وبينها أذهب يائسا ، وأنا أخشى ان يحملنى يأسى على انكار مودتك ، فأبعد مسرعا كلما رأيتك معها ، وأختبىء فى خيمتى أو أدخل بين البيوت حتى لا تقع عينى عليكما . وكم قضيت الليالى مترددا بين اخلاصى لك وبين حبى لها ، حتى لقد فكرت فى هجر العزبة وأن أفر عنها محتفظا لك بمودتى . ولكن ما كان أجهلنى وأحمقنى . لا تؤاخذنى يا سيدى فؤاد ، فاننا قوم فى عقولنا خفة تطيش معها قلوبنا . ومثلك من يلتمس الاعذار لمثلى .

وكان لكلماته أحسن وقع على قلب فؤاد ، مع ما كان فيه من حيرة وارتباك ، واندفع قوية يغنى بلهجته البدوية :

يا نوارة الشط رؤى الطل عاليها
وصبحتها مساقى الورد ترويها
يا نجمة الليل يا لله معاى نراعيها
وان نمت فى الفجر تبقى عينى تحميها

ولما انعقد سامر القرية فى تلك الليلة كانت أناشيد قوية ترن فى الفضاء مرحة مطربة ، وكانت ألاعيبه وفكاهاته تهز الحلقة بضحكات عالية ..

وأتى قوية فى الصباح التالى الى فؤاد يدعوه الى الغداء معه، وألح فى ذلك الحاحا شديدا ، فلما تمنع عليه استعان بأمه مبروكة حتى قبل ارضاء لها .

وذهب فؤاد اليه فى خيمته يحس مزيجا من بشر وتقبض ، يكاد يحمل نفسه على الدخول حملا . ولكن ترحيب مبروكة وحديثها ما لبثا أن أزالا عنه قبضته . ومدت مبروكة امام الخيمة سفرة حافلة. أعدت عليها طعاما على طريقة الاعراب من ثريد ولحم ورقاق مبسوس وشواء ، وكان طعاما شهيا .

وجال فؤاد وقوية بعد الغداء جولة فى الحقول ، وجرى الحديث بينهما على عادته ، ولكن فؤاد كان أقل حماسة من قوية الذى كان يفيض سعادة ،فلم ينتبه الى فتور صاحبه. كانت نشوة الحياة تملؤه فيعطى ولا ينتظر عطاء ، ويتحدث ولا يعبأ أن يتلقى جوابا .

وعادا بعد جولتهما الى العزبة ، فلما رآهما الاب قال يخاطب الفتى :

– لم نسيت أن تدعونى يا قوية ؟

فتبسم قوية صامتا .

وقال فؤاد :

– لقد كان غداء مبروكة عظيما كعادتها .

فقال الوالد ممازحا :

– فيه رقاق مبسوس بغير شك .

فأجاب فؤاد :

– وحمل مشوى لذيذ .

فقال الاب مازحا : أنى لك هذا يا قوية ؟ لعلك لم تأخذه من وراء نعجة تعويضة !

فاحمر وجه الفتى وقال :

– كله من خيرك يا سيدى .

ثم أطرق فى شىء من الارتباك • ولما مضى قوية بعد حين قال الوالد :

ـ لقد أحسنت يا ولدى فى اجابة دعوته •

فقال فؤاد :

لقد تمسكت مبروكة بى وألحت •

فسكت الاب لحظة ثم قال :

ـ قليل من الناس من يعرف هـــــؤلاء على حقيقتهم • اننا يا ولدى نراهم من ظاهرهم ولا نعرف كثيرا مما فى داخلهم

فقال فؤاد فى صوت خافت :

ـ لقد عرفت قوية يا أبى •

ـ قد تكون عرفت منه جانبا وغاب عنك منه جانب ، فان هؤلاء يجمعون فى أنفسهم أشخاصا أضدادا ، وكلما رأيت هذا الفتى تذكرت سلومة أخاه •

وكانت ملاحظة الاب مفاجأة لفؤاد فقال فى شبه صيحة :

ـأهو مثله ؟

فأجاب الاب هادئا :

ـ نعم هو مثله ، وان كنت أنت لا ترى الشبه بينهما•لقد عرفت سلومة قبل ان أعرف هذا • كان منه جانب من انبل طباع البشر ، ولكنه كان يمتزج بجانب اخر هو سلومة الذى يتحدث عنه الناس • فهل عرفت يا ولدى من أين أتى قوية بالحمل ؟

فقال فؤاد فى دهشة :

ـ لم أفكر فى هذا ؟

فقال الاب :

ـ أكبر ظنى انه قد سطا على اقرب جار فأخذه •

فتبسم فؤاد كأنه لا يصدق وقال :

ـ اذن فأنا شريكه •

فقال الاب :

ـ خذه كما هو ياولدى ، وحاول كما قلت لك من قبل أن

تجعل منه انسانا ، حاول الا تضيق بالشخص الاســـفل الذى فيه ، لكى تظهر منه الشخص الاعلى ٠

ولقد زادت دهشة فؤاد بعد أيام عندما عرف صدق فراسة ابيه ، فان ذلك الحمل كان حقا لاحد جيرانه ، فمد اليه يده ليولم به وليمته ٠ ولم يفض النزاع الذى ثار بين قوية وجاره الا ان تدخل الافندى ، فدفع لصاحب الحمل ثمنه ٠

وبقيت من مدة الصيف أيام ، وفؤاد ما يزال يحس فى نفسه نزاعا يكاد لا يفارقه ٠ فكان بين حين وحين يحتجب فى الدار نهارا حتى اذا اقبل الليل قضى صدرا منه ساهرا وحده يطل على الحقول الصامتة ، تؤنسه موسيقاها الوحشـــية ، وتومض من فوقه النجوم البعيدة التى لا تفصح عن سرها ٠

ثم مضت تلك الايام الباقية واستعد فؤاد للسفر وودع أبويه كما ودع العزبة واهلها وكل اركانها

وركب الى المحطة اخر الامر عائدا الى القاهرة كى يستأنف دراسته فى عامها الاخير

وسار قوية وراءه يودعه مع ثلاثة من الفلاحين يحملون حقائبه ٠ وكان قوية يسير نشيطا منشدا طروبا ، على حــين كان فؤاد صامتا يكاد يكون حزينا ، يتلفت حوله الى الحقول والى الكوم والبركة الخضراء ٠

ولما مر بحقل تعويضة قامت تجرى نحوه وهى تصيح :

ـ مع السلامة ياحاج فؤاد ٠

فخفق قلبه وهو يجيب :

ـ الله يسلمك ٠ ولا تنسى أن تسلمى على رحومة ٠

فقالت تعويضة : يصل يا سيدى ٠ ولو علم انك مبكر بالسفر لما تأخر عن وداعك ٠

فصاح قوية :

ـ هو مشغول بنومة الصباح ٠

فصاحت تعويضة :

ـ اسكت أنت أيها الخبيث ٠ وترفق فى سوق البغلة ٠

ومضى فؤاد وهو يسمع صوتها عذبا من ورائه :

ـ مع السلامة يا حاج فؤاد ٠

واستأنف قوية ثرثرته وغناءه ، حتى هم فؤاد ان يصيح به يسأله ان يمسك • ولما اقترب من المحطة التفت الى ورائه كأنه يريد ان يتزود بنظرة أخيرة من الريف العزيز •

وجاء القطار ، وصعد فؤاد بما حمل معه من حقائب وطرود ومد قوية اليه يده مصافحا ، وكان وجهه طلقا ، وعيناه تلمعان بشرا عندما قال :

ـ لى عندك رجاء يا سيدى فؤاد •

ـ يسرنى أن أجيبه •

فقال الفتى :

ـ تشرفنى فى ليلة كتابى •

فانفلتت من فؤاد صيحة :

ـ كتابك ؟

فزادت بسمة الفتى اتساعا وهو يقول بصوت متهدج :

ـ نعم كتابى على تعويضة •

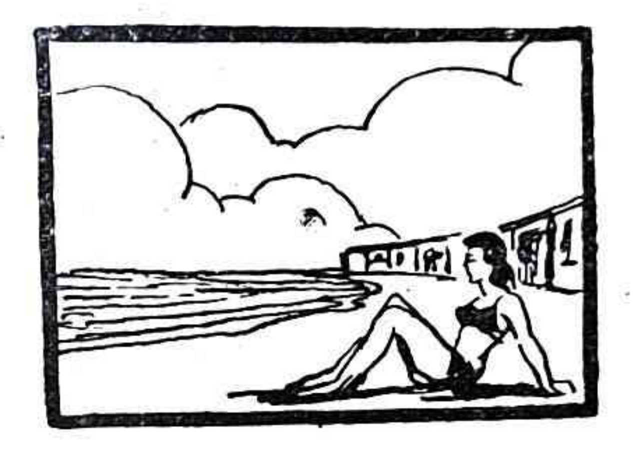
وتحرك القطار فقال فؤاد :

ـ ان شاء الله يا قوية !

ثم أدخل رأسه من النافذة ، وارتمى على الاريكة المغبرة ، وأخرج منديله فمسح وجهه وخيل اليه ان الجو يتقد حرا •

وقضى يوم سفره مع صورة تعويضة ، وهو يعجب كيف لم يدرك من قبل أن الفتى سوف يتزوجها ، وجعل يجادل نفسه بماء شاء من حجج ، ولكنها كانت تدفعها فى لجاجة التحدى • وعاد الى القاهرة شاعرا بأنه فقد خيالا عزيزا •

- ٤ -



كان حر القاهرة قد هدأ ، وصارت الشمس تطلع فى الصباح فاترة تلمع ولا تلذع ، والهواء يهب فى المساء رطبا ويسرى رفيقا ، والسحب البيضاء تجول فى السماء هائمة على رسلها.

وما كان أبدع ليالى القاهرة ، اذا سطع البدر على مياه نهر النيل . كان النور يتناثر على الموج الفائر . كأنه ينعكس على قطع من عقيق ، وكان الماء يهتز فى جريته رابيا أحمر اللون زاخرا يملأ العين جلالا ويملأ النفس عرفانا . حقا ان مصر هبة من هذا الاب الجليل . وكان فؤاد يخرج كل يوم فى ساعة الاصيل الى شاطىء النهر فيقضى عنده ساعة طويلة يغـــرق خواطره فى أعماقه ، ويطوف بناظره على أمواجه وهو لا يدرى سر تلك الهزة التى كانت تشمله . كان يحس فى صـــــدره جيشانا يستجيب الى اصطخاب الامواج وحيرة تشبه غموض الاعماق . وكانت الحياة تبدو له كأنها لغز تسنح فيه أحيـــانا سانحة من الهدى توشك ان تبعث اليه شعاعا من ادراك حقائق الوجود ، ولكنها كانت لا تلبث ان تختفى عنه كأنها ومضـــة برق فى ظلام ، فيرتد الى حيرته وقلقه متلهفا على أن تلك الومضة لم تلبث الا قليلا ، ثم خلفته وراءها فى ظلامه . وكان كلمـــا وقف هناك خطرت له خطرات من ريف النجيلة ومن أيامه فيها

وأماسيه فى اشهر الصيف • ثم تتمثل له صور من هنـاك : تعويضة وقوية ورحومة ومبروكة ،وكل هؤلاء الذين ملأواعليه الحياة فى تلك الشهور ، ثم تتمثل له صورة أبيه محلقة فوق هذا الخلق كله كما يحلق النسر فوق قمم الجبال • لقد عرف أباه قبل ذلك الصيف ، ولكنه عرفه فى تلك الشهور كما لـم يعرفه من قبل • ففتح عينيه عليه آخر الامر فرآه رجلاوانسانا كان يعيش فى ريف النجيلة البعيد أمة وحده وسط أمة أخرى يعرف أنه غريب عنها ، ولكنه كان يمد يده اليها كما يمـد السابح الماهر يده الى الغريق الذى يكافح الموج الى جانبه • وكان صدى كلماته ما زال يرن فى أذنه ، اذ قال عمن حوله من المساكين : « قليل من الناس من يعرف هؤلاء » •

وكان يسأل نفسه : أهؤلاء مثلنا ، ولهم مثل غايتنـــا من الحياة ؟ تعويضة ! أكانت لها فى الحياة غاية أم هى مثل أزهار الصحراء تنمو ثم تصوح وتفنى فى صحرائها ؟ ولكنه كان يعود الى نفسه فيسأل : ما غايتنا جميعا من الحياة ؟

وكان فى حيرته ينظر الى الماء المضـــطرب كأنه يستوحيه ويغوص فى أعماقه المظلمة ، لعله يجد فيها ما يهديه •

ورأى يوما فى بعض وقفاته عودا ضئيلا تتقاذفه الامواج على سطح الماء ، تعلو به ثم تنحدر ، وتتجه به الى اليمين تارة ، ثم تلقيه الى اليسار • ثم اذا دوامة شديدة تجذب العود اليهـــا فتدور بهلحظة ثم تبعث بهالى الاعماق •وكان هذا المنظرشبه وحيا هبط عليه ، فبدا له أن البشر ليسوا فى الوجود سوى هنة مثلذلك العود الضئيل ، والقضاء يقذف بهم حيث يريد، فهم يأتون الى الحياة بغير ان يريدوا حياة ، وهم يمضونفيها حتى يخرجوا عنها ، سواء طالت أيامهم أو قصرت ، فاذا حـان ذهابهم عنها ذهبوا كما جاءوا اليهاقسرا وأمرا بغير أنتكونلهم ارادة • فأية غاية تكون لهذا البشر فيها ؟

أليسوا يطيعون أمر الحياة او أمر الفناء ؟

هذا ما بدا له فى وقفته ، فما انصرف عن جانب النهر حتى كان قد وقرت فى قلبه عقيدة ، وأحس كأن ثقل الحيرة قد

ذهب عنه .

فان أحوال هذه الحياة لا قيمة لها ولا عبرة بها . فلاالفقر ولا الغنى ولا السلطان ولا الضعف ولا شيء من ذلك كلـــه يستحق من الناس لفتة . واذا كان للناس غاية فى هـــذا الوجود ، فانهم جميعا فيها سواء ، انه الواجب الذى خلق الله له الكائنات جميعا عندما امرهم بالوجود . أليست الشجرة تنبت عودا مثل هدبة الثوب ثم تنمو حتى تكون هيكلا ضخما ، ثـم تؤتى ثمرتها حينا وتمضى فى سبيلها بعد آن تتم وجودها ؟ أليس كل صنف من الحيوان ينشأ علقة ثم مضغة ثم يصير الى التمام حتى تخبو فورته فيطويه الثرى ؟

أليس الوجود فى تمامه هو غاية الاحياء ، وما ينبغى لصنف منها أن تكون له غاية سوى هذا ؟

وقد كان لهذه الوقفات أثرها البالغ فى حياة فؤاد ، فقـد بدلته حتى أحس أصحابه ما اعتراه من تغير . كان من قبـل يأنس الى مجالسهم ، ويقضى معهم قطعا من المساء فى سمـر صاخب مرح ، لم يكن يدرك فيه سخفا ، فصـــار يحس فى مجالسهم ضيقا ولا يكاد يجتمع بهم الا فى ساعات المائدة ثـم يقضى سائر وقته وحيدا . وداخله من هذه العزلة ضيق جديد وأحس فى نفسه فراغا ووحشة ، فكان يحس أحيانا حنينـــا مبهما وأحيانا يحزن حزنا خاويا لايدرى له باعثا ، ويتمنى لو عاد حينا الى العزبة لعله يجد فيها لنفسه مراحا . ولكنه كان لا يلبث أن ينفر من فكرته ، فماذا كان فى العزبة مما يستراح اليه ؟ ألم يقل له قوية انه سوف يعقد زواجه على تعويضة ؟

وبعث ذلك الخاطر فيه ضيقا آخر وحرجا . فما الذى يتعلق به فى خياله ؟أكان يريد تعويضة أن تكون زوجته؟ ياللسفاهة!

وجاءت عطلة العيد فهم بأن يعود الى العزبة ليقضى بها أياما ولكن خطابا أتى اليه من قوية يدعوه الى شهود ليلة عقد زواجه فمزق الخطاب حانقا وقضى ليله مسهدا كئيبا يلوم نفسه كيف نزلت به حتى يتجرأ مثل هذا الفتى على دعوته فى هذه البساطة الى عرسه ، وارتدت اليه صورة تعويضة الاعرابية فى جمالها

الوحشى كأنها تكذبه فيما يدعيه . ولكنه قضى عطلة العيد بالقاهرة . ومر به العام مضطرب الفكر حتى كاد ينسى قـــراءته ، وكان كثيرا ما يخرج الى الحقول والحدائق المجاورة لمعهده ليقضى فيها ساعاته مغفلا كل دروسه .

واقبل صيف القاهرة بحره عنيفا كعادته كل عام ، فكان يكاد يصهر الهواء ، فلا يجد فؤاد لدروسه فرصة الا ساعات من الليل اذا ما هدأ الحر وهبت من النسيم هبات كان يتلقاها كما يتلقى الظمآن جرعات من الماء .

ولما فرغ من امتحانه بعث الى أبيه معتذرا من تأخير السفر اليه ، اذ كان يريد قضاء ايام فى الاسكندرية . وعزم على أن يهرب الى ذلك الشاطىء ، يحاول ان ينسى عنده ما مر به من سخافات .

وكان اليوم الذى بلغ فيه الاسكندرية من الايام الهـــادئة الهواء التى يتجلى فيها البحر كأنه مرآة . وتنفس من أنفاس البحر فملأ صدره منه وانفرجت قبضته لمنظر الافــق الازرق الفسيح ، وسار على الشاطىء الذهبى فوق رمال سيدى بشر ، فكانت أشعة الاصيل تنساب مائلة كأنها ذهب من فوق ذهب . وكان من حوله عالم مرح يموج ويسعى كما يسعى النمل حول عشه ، يلتقى حينا ويفترق حينا ويتدافع ويتجاذب فى رفق كأن الحياة قد خلت من همومها .

ومر بالجموع تجلس فى حلقات تحت مظلات زاهية الالوان أو فى مقاصير أنيقة من الخشب يتسامر بعضها همسا ويتواثب بعضها الى أحضان الموج فى صخب . ولم يخل الشاطىء من مثله ، اذ يسير وحيدا تقع عينه على الاشخاص ولا تكاد تبصرها . كان كل ما على الشاطىء يبدو مثل أشباح تسبح حول عـــالم عنيف يثور فى داخله . وكان يقلب بصره على صفحة البحـــر الزرقاء أو فى الجموع المتزاحمة ، وهو لا يقف عند شىء منها . ألا ما كان أرفق لون السماء وألطف مس النسيم وأطيب تلك الرائحة التى تنبعث من أعشاب البحر . وملأ صدره من تلك الرائحة كما كان يفعل ، اذ هو تلميذ بالمدرســـة الثانوية ،

ليخرج كل اسبوع مع بعض اصدقائه ليمرح على مثل هذا الشاطىء

ودب الى نفسه شعور لم يدر كيف يصفه ، فما هو شعور القلب السعيد الذى كان يتمتع ، وما هو شعور المحروم الذى يتحرق ، بل هو أقرب الى أن يكون مواساة لمن حـــونه او استجابة الى نبضات الذين يستمتعون بالحياة • أهى عـــدوى من الانسانية الطروب تدخل الى قلبه المكتئب ؟ أم ذلك أثـر زرقة السماء وصفاء البحر ودعة النسيم ، ومس الاشعة الهادئة المتدفقة على هينتها ؟ كان كل ذلك جديرا بأن يهدهد من عنفه وأن يذهب عنه كآبته ، وما كان أعظم الفرق بين هذا الشاطىء وبين طرق القاهرة التى كانت تصهر الصدور بأنفاسها •

وود لو أقبل عليه بعض هؤلاء اللاهين فوق الرمال فتحدثوا اليه وأباحوا له أن ينطلق معهم متحدثا ، فان خواطره تزاحمت فى صدره فأضاقته وثقلت عليه حتى تمنى لو وجد أذنا عاطفة تستمع اليه • وخطرت له صورة صديق قديم كان يسير معـه منذ سنين طويلة اذ هما تلميذان فى المدرسة الثانوية • ولم يدر ما الذى بعث اليه صورته فى تلك الساعة ، فقد لمعت لـه فجأة مثل الشعاع الذى يخطف اذا انعكس على مرآة • كان صديقه سعيد يخرج معه فى نهاية كل اسبوع الى مثل هـــذا الشاطىء فيمرحان معا فوق صخوره او رماله ، وكانا يقفـان معا يملآن صدريهما من نسيم البحر العبق برائحة الاعشاب التى تفوح فى شمه عند ذلك • وكانا ينظران الى الشمس اذ تلمس سطح الماء عند الغروب ، فيخيل اليهما أنهما يسمعان لها نشيشا • ثم فرقت الايام بينهما فلم يره فؤاد منذ سنوات وتمنى لو رأى ذلك الصديق فى ذلك اليوم ، فقد كان يجـد فيه بغير شك اذنا تصغى اليه وقلبا يتدفق فى الحديث معه •

وكانت العيون تتطلع اليه اذا مر بها ثم تلتفت عنه فلا يبقى لحظة فى خاطرها • انها عوالم مغلقة دونه لا يستطيع أن يطرق بابها •

وسمع فى تلك اللحظة صوتا يناديه باسمه فتلفت فى فتور كأنه يفيق من حلم · أيعرفه أحد فى هذا الخلق المتزاحم الذى يجوس خلاله بعيدا وحيدا ؟ ورأى وجها باسما يقبل نحوه ، يتقلع صاحبه من الرمل مسرعا · ومرت لحظة قبل أن تزول سحابة الغموض عن بصره ، فرأى صديقه القديم الذى خطرت له صورته منذ لحظات · أهى نجوى الارواح كما يقولون ؟

وفتح فؤاد ذراعيه ليحيى صديقه قائلا فى حماسة :

ـ انها لساعة سعيدة !

فقال سعيد وهو يصافحه :

ـ لقد خطرت لى صورتك منذ قليل ·

فصاح فؤاد :

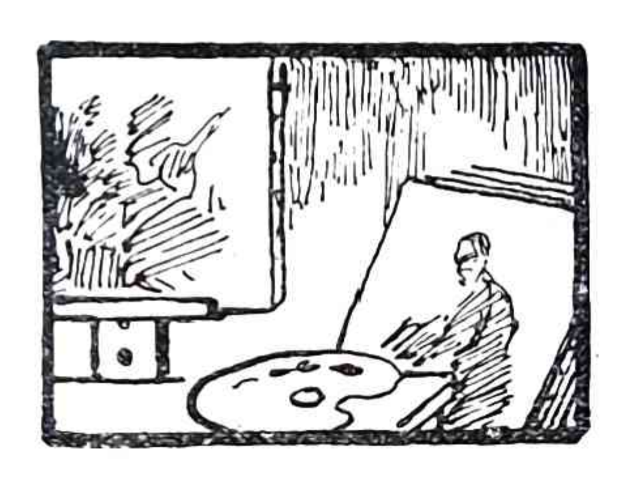
ـ كما خطرت لى صورتك منذ دقائق ·

فقال سعيد :

ـ انها آية للعلماء ، لوكان يؤمن العلماء بالارواح ·

ومالا على احد منازه الشاطىء فى اتفاق صامت ، فاتخذا فيه مجلسهما ·

- ٥ -



كان سعيد مع فؤاد فى أيام الدراسة الثانوية لا يكادان يفترقان ، ولكنهما على ما كان بينهما من الفة ضدان فى الطباع كان فؤاد وثابا على حين كان صاحبه هادئا ، وكان يقبل على دروسه فى شغف وتقديس حين كان سعيد يتلقاها فاترا كأنها قضاء لابد من الخضوع له • فكان سعيد اذا ضاق بشىء من الغاز الجبر او الهندسة خف اليه فؤاد كأنه استاذه يبصره بما غاب عنه ويعجب كيف خفى ذلك عليه • وكانا يختلفان فى هيئتهما مثل اختلافهما فى طباعهما ، فقد كان فؤاد قصيرا لا يعبأ ان يكون أنيقا ، وكان يحب اللعب والحركة فاذا لم يجد كرة يلاعب اصحابه بها صنع كرة من جورب او عمد الى قطعة مستديرة من الحجر كأنها كرة ، واما سعيد فقد كان طويلا نحيفا يتأنق فى ملبسه ولا يميل الى شىء من العنف فى حركة • ولكنه كان اذا وقع بصره على منظر جميل وقف امامه يتأمله فى خشوع ، كأنه يؤدى صلاة • وكان فؤاديعابثه عند ذلك متهكما فلا يزيد سعيد على أن يقول له : ليتك ترى ما أراه •

فلما فرغ سعيد من دراسته الثانوية اتجه الى الفن ، فقضى عاما بمدرسة الفنون الجميلة العليا ، ثم سافر الى ايطاليا

فقضى بها ثلاث سنوات عاكفا على دراسة الفنون فى شغف حتى عاد منها فى الشتاء السابق . ولم يكن فؤاد يعرف من أنبائه فى تلك السنوات الا قليلا مما يبلغه عنـــــه من بعض أقربائه ، فقد كان سعيد لا يطيق ان يستقر للكتابة ، حتى كان أهله أحيانا يحسون عليه قلقا من انقطاع رسائله

فلما استوى المجلس بهما قال فؤاد :

ـ لقد ردنى صوتك من عالم بعيد الى عالم اخر بعيد . كنت أضرب فى خواطر هائمة على الافق فأعدتنى الى أفق اخر غاب عنى من سنين .

وأخذا يتذاكران أيامهما الاولى التى بدت لهما هادئة سعيدة اذ خلع عليها البعد غلالة حجبت همومها الصغيرة . واستمر الحديث بينهما متدفقا فيما قرب وما بعد حتى مالت الشمس الى الغروب فنظرا نحوها فى صمت يرقبان قرصها الاحمـــر وهو يتطاول نحوالبحر حتى انغمس فيه . فقال سعيد ضاحكا :

ـ ألا تسمع نشيش الماء ؟

فأجابه فؤاد فى ضحكة مثلها :

ـ انه سؤالك القديم ، وهو يذكرنى بوقفاتنا على هـــذا الشاطىء منذ سنين ، ولقد كنت منذ صباك فنانا . ارضيت عن حياتك يا سعيد ؟

فقال سعيد هادئا :

ـ أظن ذلك .

ونظر فؤاد الى وجهه الذى عرفه فوجده كما كان وديعــا نبيلا . واستمر سعيد بعد لحظة قائلا :

ـ وانت ؟

فهز فؤاد رأسه قائلا :

ـ لست ادرى . لقد طلما سألت نفسى هـــــذا السؤال فلم أستطع جوابا .

فقال سعيد :

ـ هذا سؤال لم يخطر لى .

فأجاب فؤاد :

ـ ليته لم يخطر لى . اذن لكنت مثلك راضيا .

فقال سعيد :
ـ ولم لا نأخذ الحياة كما نجدها ؟
فقال فؤاد :
ـ حبذا لو استطعت . ألم تسأل نفسك عن غاية هـــذه الحياة ؟
فضحك سعيد هادئا وقال :
ـ وهل يقدمنا ذلك التساؤل خطوة نحو الرضى . اعرفت انت غايتها ؟
فقال فؤاد وهو يهز رأسه :
ـ خيل الى حينا اننى وجدت جوابا على سؤالى . ولكن ..
فقال سعيد عاطفا :
ـ ألا يكفينا ان نحياها كما تتهيأ لنا ؟ اننا نطل عليها من حيث نكون وهى تبدو لنا كما نصورها لانفسنا .
فقال فؤاد :
ـ أليس هذا خداعا لعقولنا ؟
فضحك سعيد ضحكة هادئة وقال :
ـ واين الحقيقة التى نخادع انفسنا عنها ؟كنت انظر الآن الى منظر الشمس ، اذ تميل نحو الماء وتصبغ السحب بألوانها الخلابة ، وأقنع من كل ذلك بما يقع عليه بصرى . ولو تعمقت المنظر لاعرف ما وراءه من الحقيقة لما اصبت من ذلك الا ان افسد على نفسى متعتها .
وكان الشاطىء قد اخذ يخلو من جموعه فأجال فؤادبصره فيه ثم قال :
ـ لقد خلا هذا الشاطىء ممن كانوا فيه منذ ساعة ، وكاد رمله يصير صحراء بعد ذهابهم . الم تكن كل تلك الرؤى وهما؟
فقال سعيد :
ـ ولكن الذين كانوا هنا قد اخذوا من الحياة ما جادت عليهم به ، ولم يقفوا ليسألوا أنفسهم عن غايتها .
فقال فؤاد فى ارتياح :
ـ لقد بعد العهد على سماع آرائك وانا مشوق الىاستعادة ما كنت احسه عند سماعها . لم انس بعد كيف كنت اقف بك

على قنطرة الطريق الحديدى ونحن عائدان من نزهتنا ، فأعكر عليك صفو اليوم بمحاسبتى عما اضعنا فيه يومنا . ولكنك كنت دائما تنتصر وتتغلب ببشرك وصفائك على مجادلتى .

فقال سعيد :

ـ هذه مجاملة لا اظننى جديرا بها . قد يكون ما تراه منى اثرا من اثار قصورى ، فانا لا اطيق ان اغوص الى ماهو ابعد مما يقع عليه حسى . اما تذكر كيف كنت اصيح بك « لقد افسدت علينا نزهة يومنا ؟ »

فقال فؤاد فى رنة من الحزن :

ـ وها انذا أحاول ان افسد على نفسى ما احسه من سرور بلقائك يا سعيد . حدثنى عن نفسك ودعنى احدثك عن نفسى

فعاد سعيد يقص عليه بعض انبائه منذ غاب عنـه ، وفؤاد يبادله الحديث بطرف مما عنده . وكان الظلام قد هبط على البحر وهبت الريح شديدة ، فاضطربت الامواج سوداء ثائرة فقال فؤاد :

ـ أظننى اخذت من وقتك اكثر مما ينبغى لى ؟

فقال سعيد :

ـ بل احسب اننى لم اخذ من وقتك ما يقنعنى . الا تحب ان تقضى سائر الليلة معى ؟

فنظر فؤاد اليه مترددا فبادر سعيد قائلا :

ـ انى اقيم فى مرسمى وهو فى حديقة الدار فلن تزعج بزيارتك احدا غيرى .

فابتسم فؤاد قائلا :

ـ كما تعودت ان أزعجك قديما .

وقاما يسيران على طريق الكورنيش يتذكران ما طرأ على ذلك الشاطىء من تغيير فى مدة سنوات قليلة . وكانت الدار على ربوة يصعد اليها الطريق مدرجا من محطة السراى ، ومن حولها حديقة بديعة التنسيق يتخذ سعيد مرسمه فى بنـاء بجانب منعزل منها .

وكان منظر الحديقة فى الليل رائعا بين سطوح مطمئنة من العشب واشجار باسقة من حولهـا احواض من شجيرات مزدهرة ، وكانت أركانها تلوح فى الظـلام بعيدة

يخترقها شعاع من ضوء مصباح خافت يزيدها غموضا .
فقال فؤاد معجبا :
ـ انها حديقة فنان .
فأخذ سعيد يتحدث اليه وهما يتجهان نحو المرسم عن أركانها الظليلة فى الليالى القمراء .
ولما دخل الصاحبان الى المرسم اقتسما عشاء خفيفا ، كان على مائدة فى مدخله ، ثم جلسا يتحدثان فى غرفة المكتب المجاورة .
وقال سعيد بعد حين :
ـ ألا تحب أن تلقى نظرة على مرسمى ؟
ولم ينتظر من صاحبه جوابا فسار الى بهو فسيح ،واضاء انواره وتبعه فؤاد ، فكأنه دخل الى عالم جديد . كان البهو مزدحما بما فيه من صور بعضها صغير معلق على الجدران وبعضها قائم على حوامل من الخشب فى غير نظام ، وهى مناظر شتى كأن الحياة الزاخرة اجتمعت فيها . ورأى فؤاد فى صدر البهو اطارا كبيرا فيه صورة تتقد بالوانها تحت الاضواء الهادئة . فاتجه اول شىء اليها ووقف امامها ثابتا . كانت صورة زنجى متسول ممن يحملون تلك القيثارة الساذجة ذات السلوك الجشاء . وكان يلبس ثيابا مهلهلة وفى وسطه حزام علقت به عناقيد من ودع واسنان حيوان وخرز ، وكان واقفا فى قطعة من صحراء جرداء ليس فيها عود ولا حياة . وكانت اشعة الشمس تقع على رأسه العارية وظله رابض تحت قدميه . وكانت الوان الصورة تتوهج حمرة وصفرة تنتهى الى حواف قاتمة كأنها لهيب ينبعث منه دخان .
ولكن الزنجى المتسول كان يرقص مرحا واقفا على ساق واثبا بالاخرى يضرب بيده على قيثارته الساذجة ، ووجهه الممتلىء قوة يفيض بالبشر والسعادة .
وكان سعيد واقفا الى جانبه يتأمل الصورة صامتا ، فلما طالت وقفة فؤاد امام الصورة ، فقال له سعيد :
ـ أقد اعجبتك ؟
فقال فؤاد فى حماسة :

ـ انها مدهشة !
فتبسم سعيد مرتاحا وقال :
ـ انها اعز لوحاتى على .
وأجاب فؤاد :
ـ أظنك قد جمعت فيها كل فلسفتك . ان السعادة ليست وقفا على من نحسبهم السعداء .
فرفع سعيد يده ضاحكا وقال :
ـ أرجوك يا صديقى ! لا تذكر الفلسفة اذا تحدثت عنى ، فأنا ابعد هذا الخلق عنها . ان الفلسفة والعلم كلاهما يفكر ويتعثر واما انا فحسبى ان احس .
فقال فؤاد جادا :
ـ اذن لقد وضعت فيها كل قلبك .
فأجاب سعيد باسما :
ـ أما هذا فنعم . وضعت كل قلبى فى هذه الصورة مرة حتى كان يخيل الى اننى اعيش فيها .
فضحك فؤاد قائلا :
ـ اذن فأنت كامن فى طى هذا الزنجى .
فأجاب سعيد :
ـ بل أنا هو يا فؤاد . كما اننى كل هذا الذى تراه هنا .
فضحك فؤاد وهو ينظر نحو منظر ريفى .
فقال سعيد باسما :
ـ وهذا أيضا يافؤاد . لا تخش انتقول ما جال فى نفسك . أنا كذلك فى هذا الثور الذى تراه هناك هادئا يضطجع مجترا انظر الى هذه الصورة . واشار الى يساره .
فنظر فؤاد الى صورة جميلة من الشـــوك تطل من بين أشواكها ازهار باسمة ناضرة لها الوان لا يشبهها فى روعتها شىء مما تقع عليه العين فى البساتين الضاحكة .
ووقف فؤاد امامها مشدوها .
فقال سعيد فى نغمة رضى :
ـ أزهار الشوك يا فؤاد !
وتمتم فؤاد قائلا فى غير وعى : ازهار الشوك !

وأخذ يتأملها بقلب واجف وهو يذكر داره القديمة العزيزة فى النجيلة والكوم والفتاة البدوية ذات الجمال الوحشى تعويضة ٠

فقال سعيد :

ـ أأعجبتك هذه أيضا ؟ انها قطعة من الطبيعة الصامتة قلما يعبأ احد بمثلها ٠

فقال فؤاد فى رنة تشبه الحزن :

ـ بل هى قطعة من الانسانية ٠ ألا تسميها البدوية الحسناء

فصاح سعيد :

ـ احسنت التسمية ٠ ان ذلك الاسم لم يخطر ببالى ٠ ولكنها تشبهها اذ تتبرج ضاحكة فى ثيابها الفقيرة واقدامها الحافية الخشنة ٠

فقال فؤاد فى صوت خافت :

ـ أرأيت يوما مثلها ؟

ولم ينتظر جوابه والتفت كأنه ينزع عينه من تلك الصورة قسرا واتجه الى صورة اخرى منزوية في ركن الى جانب صورة الزنجى ٠ كانت صورة فتاة فى نحو الثامنة عشرة بيضاء الوجه زرقاء العينين شقراء الشعر ٠ وكان فى نظرتها معنى من وداعة وظرف يخالطهما لون من حزن وخوف ٠ وكانت واقفة على قطعة صخرية عالية من شاطىء ، وتهم بالنزول الى صخرة بين الموج ، تمسك بجانب ثوبها الابيض وترفعه فى حذر ناظرة الى ما تحت قدميها ، كأنها تخشى ان يصيب الموج حذاءها الابيض الناعم الدقيق ٠ وكانت الامواج تضطرب دونها متكسرة على صخور الشاطىء فى عنف ٠

وقال فؤاد وهو ينظر اليها :

ـ حقا ان مثلى ممن ينظرون الى اعمال الفن من ظاهرها يسيئون اليها اساءة كبرى ٠

فقال سعيد :

ـ ولكنك تنظر الى الاعماق يا صديقى ٠

فقال فؤاد :

ـ لقد كدت أعيد غلطتي الاولى فأعبر عن هذه اللوحة بلفظي كما فعلت مع صورة الزنجي • كدت أقول أنك جمعت فيها جانبا آخر من فلسفتك •

فقال سعيد :

ـ ولكنك أحسست مثل احساسي وتعمقت الى ما هو أبعد منالا مني • فأنا أحس وأمزج ألواني ولا أحاول أن أحدد ما أحسه في ألفاظ •

فأجاب فؤاد :

ـ وانا افسد عليك ماتحس بأن اقرأ فيه ما اعتدنا ان نقرأه في صحف الصباح أو المساء •

فقال سعيد :

ـ فماذا قرأت هنا ؟

فقال فؤاد :

ـ أما وقد شئت أن أقتحم عليك عالمك العلوي فاني أرى هذه الصورة تكملة للاخرى • فاذا كان للحياة شاطئان فصورة الزنجي على شاطىء منهما وهذه على شاطئها الثاني •

فقال سعيد في نفس عميق :

ـ لكأنك كنت في نفسي • حقا أنها تكملة الصورة الاخرى كان هذا المعنى غامضا في أعماق حسي حتى جلوته أنت في ألفاظك القليلة • أأقول اننا معاشر أهل الفن نقنع بالاحساس الصامت لاننا نعجز عن خلق اللفظ الناطق ؟

فضحك فؤاد قائلا :

ـ لو كنت من أهل الادب لمددت اليك يدي مصافحا ، ولكني أوثر ان يبقى فنك صامتا ، وخير لنا ان يبقى الفن مطلقا مبهما من أن نحاول ان نحدده بألفاظنا •

ثم حول بصره الى البهو الفسيح وفيه عشرات أخرى من لوحات بين صور من جوامد واخرى من الاحياء ، وبين مناظر من الريف وأخرى من الصحراء او شواطىء البحر •

ثم قال لصاحبه :

ـ ان هذا عالم لا نجرؤ على أن نطلع عليه في مثل هذه

اللمحة العابرة .

- ثم عاد الى صورة الفتاة قائلا :

- من هذه يا سعيد ؟

فمد سعيد اليه ذراعه وقال له ضاحكا :

- أما تكفيك صورتها ؟

ثم جذبه عائدا به الى غرفة مكتبه .

وخجل فؤاد من فضوله على ما كان بينه وبين سعيد من المودة القديمة . وخيل اليه أنه قد اقتحم عليه بهذا السؤال سرا . وأدرك فؤاد من هيئة صاحبه ان جوابه قد صده فقال له باسما :

- لا بأس عليك ولا تذهب بك الظنون مذاهبها . فهذه أختى ، أقصد صاحبة الصورة التى سألتنى عنها .

فتبسم فؤاد وأسرع اليه شعوره بالارتياح وقال :

- أحسنت اذ جلوت أمر الصورة لى فقد كدت أذهب مع ظنونى حيث تسرح بى .

فاستأنف سعيد قوله :

- كنا ليلة نتحدث فى الفن فقلت لاختى ان الفنان يصور ما يراه وليس ما يبدو للاعين أمامه ، فهو يترجم الطبيعة ولكنه لا ينقلها نقلا .

وكانت علية اختى تراجعنى وتزعم انها كبرياءاصحاب الفن هى التى تخيل اليهم انهم فوق البشر وانهم يخلقون ويبتدعون ، ثم انتهى بها الامر الى التحدى فطلبت الى أن أرسم لها صورة لترى هل هى صورتها كما تحسب أو أنها فى الحق من خلقى أو ترجمتى .

وذهبنا فى اليوم التالى الى شاطىء البحر فرسمت تلك الصورة لها .

فقال فؤاد :

- اذن فأنت لم تأت بشىء من عندك كما قلك لت . انها واقفة على صخرة والبحر من دونها .

فقال سعيد :

ـ ولكنها منذ رأت الصورة آمنت برأيي فقد كانت لاتحسب أن تلك صورتها ٠
فقال فؤاد فى حماسة :
ـ انها صورة رائعة :
فأجاب سعيد باسما :
ـ دع هذه الاوصاف يا فؤاد فان الالفاظ لا يمكن ان تعبرعن معانى الفن تعبيرا صحيحا ، ولست أدرى ماذا تعنى عندماتقول ان تلك الصورة رائعة ٠
فقال فؤاد :
ـ فكيف تريد أن أصفها ؟
فرفع سعيد كتفيه قائلا :
ـ لا أدرى ٠ هذه صورة أختى كما رأيتها ولا يهمنى بعد ذلك كيف تصفها ولا كيف يصفها الناس سواك ٠
فقال فؤاد :
ـ وماذا قالت عنها علية ؟
فأجاب سعيد :
ـ أظن أن اعجابها بى زاد أضعافا حتى ألحت على ان تكون تلميذة لي ٠ فقد أعجبها ما رأت من ألواني ومن تعبيرى وقالت كلاما كثيرا لم أفهم منه أكثر مما أفهم من كلامك أنت ؛
فهى مثلك تستعمل ألفاظا لا أعرف لها معنى ، أما أنا فانى لم أقصد من صورتها أن تكون رائعة ولا أن تكون شائهة ، وكان كل ما فعلت أن نظرت اليها ثم انطبع منها آثر فى نفسى فصورت هذا الاثر وكنت فى اثناء ذلك لا اكاد افتح عينى ٠
فهز فؤاد رأسه فى هدوء وقال ضاحكا :
ـ اننى أخاف أن أصف لك ما وقع فى نفسى ٠ فأنت تحتقر ألفاظنا معاشر البشر كأنك قد أصبحت خلقة أخرى ٠
فأجاب سعيد :
ـ بل يسرنى أن أسمع ما تقول وان كنت لن أفهمه ، ويسرنى سماعه لكى أرى كيف يفكر أمثالك من الفلاسفة والعلماء ٠فقل ما بدا لك لعلك تعلمنى شيئا جديدا ٠

وكانت سخريته وديعة اشبه شيء بالتحية ·
ومضى فؤاد فى حديثه قائلا :
ألقى فى روعى عندما رأيت الصورة أن صاحبتها فتاة طيبة هادئة سعيدة ، ولكنها مع ذلك تتطلع الى شيء مجهول تحاول ان تجد فيه ما يدخل عليها بعض الحزن او الالم او القلق او كما شئت ان تسميه ·
فخبط سعيد بيده على المنضدة فى حماسة وقال :
ـ انك تكاد تنطق بما فى نفسى مرة أخرى ، فتعبر عما عجزت عن التعبير عنه فى ألفاظى · ويخيل الى أن العيب فى أنا اذا كنت لا أفهم ما يقوله أمثالك · لم أفكر فى هذا كله ولكنى أحسسته ، وهى حقا كما تصفها · هى تعيش فى ظل أبيها منعمة هادئة سعيدة ، وهى طيبة القلب الى أبعد ما يكون القلب طيبا ، ولكنها مع ذلك تنظر الى الحياة نظرة يشوبها الحزن والقلق والالم ، وهى تقضى وقتها فى المعاونة على بر الضعفاء والمشاركة فى خدمة المساكين · فهى عضو من جمعيات خيرية شتى ومؤسسات اجتماعية مختلفة تعود منها كل يوم حزينة وترى أن ذلك يدخل على قلبها سعادة أكبر من سعادتها بنعمة أبيها ·
فقام فؤاد يذرع الغرفة قائلا :
ـ لقد صدقت التعبير عنها فى صورتها ! فهى كما قلت لك من قبل تقف على الشاطىء الاخر من الحياة ، تقابلها من بعيد صورة الزنجى المرح ·
ومد سعيد يده الى مكتبه فأخرج منه لفافتى تبغ سمراوين، وقدم واحدة منها الى صاحبه ·
فقال فؤاد وهو يأخذها :
ـ لست أدخن ولتكن هذه أول لفافة أدخنها ·
ثم أشعل اللفافة ونفخ منها سحابة بيضاء كثيفة ورفع بصره اليها قائلا :
ـ دعنى أصور من هذا الدخان لوحاتى ·
ومضيا فى الحديث الى أن مضى أكثر الليل ·

- ٦ -



طالت اقامة فؤاد بالاسكندرية فامتدت الى أسابيع حتى أوشك الشهر أن ينقضى ، وكانت أياما ملأى فى صحبة سعيد وأخته علية • كان يصاحبهما ساعات من النهار او ساعات من المساء يقضونها على شواطىء البحر أو فى المنازه النائية فى الاطراف وكانت علية تهوى التصوير وتصاحب اخاها فى كثير من جولاته فتستمع اليه وترسم أحيانا مناظر على هداه •

وكانت احاديثهم تتسرب هادئة فلا يحسون للوقت طولا •

واستعاد فؤاد مودته الاولى لصاحبه فعادا كأنهما لم يفترقا من قبل يوما • وتوثقت مودة جديدة بينه وبين علية ، وكان فؤاد كل يوم يرى فيها معنى جديدا • كانت علية حسناء بغير شك ، بل كانت أبدع من صورتها حسنا • ولكن شيئا غامضا كان يفرق بينها وبين صورتها ،وكثيرا ما حاول فؤاد أن يكشف عن ذلك الفرق الغامض فكان يرهف سمعه وبصره لكل حركة منها ، بل لقد كانت صورتها تبقى فى ذهنه بعد ان يخلو لنفسه فيمضى فى تأملها • لقد خلق سعيد فى صورتها راهبة وديعة تكاد عيناها تنمان عن عزوف عن الحياة على حين كانت علية فتاة طروبا مرحة تملؤها الحياة • حقا كانت تحب أن

تشارك فى مؤسسات الخـــير وتعاون على أعمـال البـر ولكنها كانت تفعل ذلك وهى شاعرة بانها قوية تمد يدها الى الضعفاء ، وخيل الى فؤاد ان الكبرياء هى التى تحـركها . وكانت كبرياؤها صنفا يختلف فى لونه عما اعتاد الناس ان يصفوا به المتكبرين . وكانت تحس كأنها تحلق عالية فـلا يضيرها أن تمد يدها الى من هم فى أدنى الافق وهى لا تخلو من شعور بالزهو ، وكان يطربها ان ينظر اليها الناس اذهى تتنازل بمد يدها .

ولكم خلا فؤاد الى نفسه فحدثها عن علية الحية التى قضى اليوم معها وكان يحس تعلقا بها يزداد يوما بعد يوم وود لو استطاع ان ينظر الى الحياة كما تنظر هى اليها .

وكان يخيل اليه أحيانا انها تحس بنفسها وتعرف مقـدار حسنها فكان فيها نوع من العجب يحملها على شىء من التكلف يقلل من بهجة حسنها . وكثيرا ما كان يقرن صورتها بصـورة تعويضة الاعرابية التى كانت لا تعرف الغرور ولا العجب ولا الزهو ، ولكنه كان لا يلبث ان يعود من الموازنة بينهما نافرا حانقا يكاد يحس أنه قد ارتكب جرما . أكان ينبغى له أن يقرن صورة هذه الحسناء المنعمة المثقفة بصورة البـدوية التى لا تستطيع أن تستمر فى حديثها الى ما بعد التحية والابتسامة ؟ كانت تعويضة كالقطة البرية اذا غاضبها أحد من قومها ،ولكن هذه الفتاة الوديعة كانت لا تعرف كيف تغضب ، بل كانت لا تعرف ان الحياة قد تسوقها الى ما يثير غضبها .

وكانوا يخرجون احيانا الى ظاهر المدينة فاذا بلغوا ريفا خاليا ، وقف سعيد يجمع فى عينـه المناظر ، ووقف فؤاد مع علية ينظران اليه يتفكهان برؤيته ، او يتجهان اليه ببعض الفاظ التهكم الرفيق ، وكانا يجدان فى هذه الاوقات فرصـة يتبادلان فيها الاحاديث . وكانت علية واسعة القـراءة فى الفرنسية تعرف الكثير من بدائع ادبها القديم والحديث ،وكان فؤاد يخجل اذ لا يستطيع ان يرد عليها بشىء من قراءاته سوى ان يتحدث اليها عن شىء من القانون او ما يتصل به اذا عرض

ذكر من ذلك فى الحديث • فقنع معها بان يستمع ويعجب باختيارها لما تقتبس من ذلك الادب وكان هذا يملق زهـــوها ويرضيها • ووقف سعيد يوما على عادته ينظـــر الى الافق وهم وقوف على رابية فى حدود صحراء مريوط، فجعل يشير بيده الى تعاريج الشاطىء والى تضاريس الصخر ، وما على البحـــر والبر من الوان حتى لقد كان يرى للهواء فى كل صوب لونا فكأنه وقف يطلع على العالم من نافذة لا يطل سواه منها •

فقال له فؤاد :

ـ أتعرف كيف اراك يا سعيد ؟

فنظر اليه سعيد ضاحكا وقال :

ـ هل اصبحت فنانا ؟

فصاحت علية :

ـ وهل تريد ان يقتصر الفن عليك ؟ سأرسم لهذا الساحل صورة تجعلنى من الخالدين •

ثم ضحكت قائلة : اليس هذا الخلود هو مطمع اهـــل الفنون ؟

فأجابها سعيد :

ـ أهكذا يليق ان تتحدث التلميذة الى استاذها ؟

ثم التفت الى فؤاد قائلا :

ـ أحب أن أعرف كيف ترانى ؟

فقال فؤاد : كأنى بك احد كهنة القدماء •

فضحكت علية وقد اعجبها التشبيه وقالت :

ـ هكذا صورة الراهب فى تاييس •

فقال فؤاد :

ـ هكذا كان الكاهن القديم يقف فيقول للناس انى ارى الاله فيقول المساكين هذا هو وان لم يروا شيئا •

فقال سعيد :

ـ ولكنى أرى الهى حقا • ولا عيب على اذا كانت العيـــون لا تراه • فأنا ابصر هذا الوجود الوانا واشكالا ، وان كنت تأبى على الا ان اراها اشياء واشخاصا •

فقالت علية :
ـ احسنت يا سعيد ، واظنك قرأت اناتول فرانس
فقال سعيد فى بساطة :
ـ لم أقرأ منه حرفا .
وضحك فؤاد وعلية ، ولكن فؤاد كان يخشى ان تتجه اليه فتحدثه عن قصة الاديب الكبير الفرنسى ، وتسأله هل قرأها، وشعر بالنجاة عندما اخذت هى تتحدث وتصف كيف كان أناتول يقرع الادراك الانسانى على غروره وقصوره .
وأحس فؤاد فى ذلك اليوم وهو عائد الى المدينة انهقضى يوما من الايام التى لن تزول صورتها من الذاكرة . كانت ساعاته من اللحظات الموسيقية التى تمر عابرة فلا تعود ، ثم تترك وراءها اصداء حلوة مطربة تتردد الى الابد فى الاسماع .
ولما نزلوا عند البيت استندت علية بيدها على ذراع فؤاد حتى دخلوا الى المرسم ، وأعدت فى ذلك المساء مائدة الشاى بيديها . وقد كان لذلك الشاى بعد جهد اليوم طعم لايشبه طعم اى شاى ذاقه من قبل !
وجاء الى فؤاد كتاب من ابيه يدعوه الى الذهاب عنده فلم يجد بدا من طاعته بعد ان انقضى شهر عليه فى الاسكندرية وكان لابد له من ان ينظر فى امر مستقبله ويستشير فيه والده بعد ان ظهرت نتيجة الامتحان ، وما كان اشد عجبه اذ عرف انه نجح وكان سابقا . فاستأذن صاحبه كما استأذن علية . ووقعت كلماتها على سمعه عذبة عندما قالت له :
ـ لا تنس أن تزورنا .

***

واحتفلت القرية بمقدم فؤاد فلقيته عند عودته اليها بما لم تلقه به من قبل . وازدحمت الدار اياما بمن وفد عليها من القرى المجاورة ، وكان نساء العزبة يجتمعن كل ليلة فى فضاء الجرن يغنين ويزغردن كأنهن يحيين عرسا .
وجاء اليه قوية بعد ثلاثة أيام ، وكان لم يره منذ يوم وصوله الا مرة عندما سلم عليه فى صحن الدار مع الجموع الوافدة .

فقال له الفتى :
ـ سيكون عقدى بعد غد يا سيدى ٠
فقال فؤاد فى شبه صيحة :
ـ أو لم تعقد بعد يا قوية ؟
فقال الفتى خجلا :
ـ وهل كنا لنعقد وانت غائب عنا ؟
فوقعت كلمته فى قلبه ، ونظر اليه حينا يتأمل بناءه القوى ووجهه الصريح ومد اليه يده قائلا :
ـ مبروك يا قوية !
وقال كلمته بملء قلبه ، فقد احس نوعا جديدا من السعادة أن يرى ذلك الصديق الوفى سعيدا ٠
ثم قال له :
ـ وأين تعويضة ؟
فقال الفتى باسما :
ـ تعد ثوب عرسها ٠
وعجب فؤاد اذ احس عند ذلك هزة من سرور اخرى ، كأن مافى قلب الفتى قد انتقل الى قلبه ٠
وقال باسما :
ـ فهى اذن لاهية عنا ٠
فضحك قوية قائلا :
ـ وكيف تلهو عنك يا سيدى ؟ لقد كانت طول هذا الشهر تسألنى متى تأتى ٠
فقال فؤاد عاطفا :
ـ أبلغها تحيتى ٠
وتصورها عند ذلك واقفة الى جانب علية الحسناء المنعمة ٠ الا ما ابعد الفرق بينهما ! ولكن تعويضة كانت مع ذلك حسناء مثل زهرة الشوك فى البرية ، وحسبه منها ان ينظر الى حسنها وان يشفق على انها سوف تذبل نضرتها فى صحرائها ، ثم تصوح وتذوى بغير ان تقع عين عليها ٠

وقال فؤاد لقوية بعد لحظة صمت :

ـ سأكون احد الشهود فى عقدكما . بارك الله لكما .

ومضى عنه الفتى شاكرا ، وبقى هو حينا ينظر الى نفسه كيف تبدلت . أكان هذا الذى شعر به نحو تعويضة من قبل اثرا من اثار الوهم او الفراغ ؟ أكان نتيجة لجهده المتصل وانطوائه على نفسه ؟ أكان فى ظلمة ثم خرج الى النور منذ رأى علية ؟

مهما يكن من امره فقد احس سعادتين احداهما كلما تذكر علية المنعمة الحسناء على شاطىء الاسكندرية ، والاخرى كلما تذكر ان تعويضة سوف تسعد بعد غد فى ليلة زفافها .

واجتمعت القرية تلك الليلة فى الفضاء الفسيح يحفبهم النخيل من جانب وسفح الكوم الكفرى من جانب ، وكان القمر يزهر فى سماء الخريف فى وشى من سحب بيض تتهادى على رسلها ، فتحجب نوره بين حين وحين . ووضعت ثلاثة من المصابيح فى فوانيسها الزجاجية الكبيرة ، فى وسط حلقة صاخبة من نساء ورجال واطفال يتصايحون ويتنادون لكى يروا رقصة تعويضة فى الصابية . واخذت الحلقة تضرب بأكفها ودخلت تعويضة فى وسط الحلقة تخطر فى ثوبها الجديد .

وجلس فؤاد على كرسى فكان موضعه صدر الحلقة ،وجلست مبروكة تحت قدميه عن يمينه ، ووقف قوية الى اليساروبدأت تعويضة رقصتها وانطلق قوية منشدا :

صغير غادى فى النوار منور مثله وعوده زين

وكانت ضربات الاكف تساير وزن النشيد سريعة وثابة ، وتعويضة لا تكاد تمس الارض باطراف قدميها تدور وتثب وتميل برأسها ، وضفائرها الطويلة السوداء تضطرب على صدرها وكتفيها كأنها لفائف من حرير غزير .

وود فؤاد لو كانت علية وسعيد الى جانبه فى تلك الليلة يريان معه ما يرى ويشاركانه ما يتمتع به من سعادة • وكان يخيل اليه عند ذلك أن الحياة كلها تبتسم للحلقة المتواضعة السعيدة التى تزأط وتضطرب تحت عينيه • فلو كانت علية هناك لما ترددت فى أن تصور لهؤلاء صورة تعرضها على أستاذها وأخيها لعلها تفوز برضائه عن مقدرتها • ولو كان سعيد هناك لاوحى اليه المنظر صورة عجيبة لا تخطر لاحد ببال • كان من الممكن ان يصور الراقصة البدوية او السيد الجالس أو قوية المنشد أو المصابيح فى وسط الحلقة ، أو أن يصور شيئا غير هذا كله ليودع ما ثار فى نفسه من أثر ذلك المنظر العجيب •

ولو كانت علية هناك لجلست معه فى الحلقة تنظر الى هؤلاء القرويين الذين يمرحون فى أسمالهم ، وتمد اليهم يدها من أفقها العالى ناظرة حولها تنتظر لفتات الثناء والشكر على تنازلها • ولما انفض السامر ذهب فؤاد مع قوية الى داره التى اتخذها مسكنا فى جانب من العزبة بدل الخيمة التى كان يقيم بها فى جانب الكوم ،وأخذ فؤاد معه هدايا كان ابوه قد اعدها له من ذبائح تنحر فى الليلة التالية ، ومن ثياب لتعويضة تضعها على كتفيها أو تلبسها فى قدميها فى ليلة زفافها المقبلة • ولم ينس الوالد أن يبعث الى مبروكة ثوبا أسود فضفاضا وملاءة وطرحة ونعلا أصفر من جلد لين لامع •

واحس فؤاد اذ هو عائد الى داره ان قلبه يفيض سلاما وحبا ــ حبا لم يعرفه قبل تلك الليلة ، فيه مؤاساة وفيه حرارة ومودة ، ولكنه مصفى من كل رغبة او غاية •

وقضى أول الخريف فى القرية يشاور والده فى مستقبله وكان أبوه يريد له أن يلى عملا فى النيابة ، فقد كان هذا أمله الذى كان يرمى اليه ، وكانت أمه تحب له الوظيفة ولا ترضى أن يكون محاميا • وبعث الوالد الى بعض أصحابه يسأله أن يعينه على أمره ، وكان فؤاد يذهب بين حين وحين الى القاهرة ثم يعود وهو فى حيرة لايدرى أى سبيل يختار فى الحياة • ولكن أباه كان ثابتا على رأيه لا يرضى الا أن يكون ولده وكيلا

للنيابة فهى الوسيلة الى المناصب الكبرى وهى اكرم الوظائف فى عينه قدرا ٠

وأوغل الخريف وشغل الوالد بجنى القطن وجمـــع الارز واعداد الارض لزرع الشتاء فكان لا يكاد يفرغ من عمل فى ساعة من نهار ٠

وكان ذلك أول خريف يقضيه فؤاد فى العزبة منذ دخل فى المدارس ، فكان منظر الجو الغائم جديدا عليه يجد فيه متعة اذ يجول بالحقول تحت قطرات الرذاذ أو بين سحب الضباب ٠

وكان يوما يجول جولته تحت سماء غائمة ، يكاد يدفـــع سحابها المطاطىء بكفه قائما ٠ وكان الهواء يزمجر عاصفـــا باردا كأن بابا من الزمهرير قد فتح على السهل الفسيح فجأة، فاسرع حتى بلغ ادنى دار من القرية فدخلها ليجد فيها ظلا فاستقبلته صاحبة الدار وأسدلت طرف طرحتها عـــلى جانب وجهها ٠ وسلمت عليه فى غير تكلف ، وأسرعت الى داخـــل البيت تلتمس له مقعدا ٠ ثم جاءت له بكرسى صـــغير من الخشب وارتدت داخلة الى الدار فغابت حينا حتى عادت تحمل فى يمينها ابريق قهوة من معدن سوده الهباب ، وفى يسارها فنجانا مكسور الحافة فصبت فيه القهوة وتناولها فؤاد شاكرا وجاء صاحب الدار بعد قليل يسوق بقرته فلما رآى (فؤاد) القى حبل البقرة على ظهرها واسرع داخلا يحييه مرحبـــا ٠ وجلس امامه عند عتبة الدار وكان المطر يهوى فى الطريق كأنه ينحدر من بزابيز ٠ واخذا فى شىء من الحـــديث عن عاصفة اليوم وعن حالة الزرع ، وكان الرجل يلتفت نحـــو الحقول فى اثناء الحديث وعلى وجهه اثر اللهفة ٠

فقال فؤاد :

ـ أظن المطر قد هدأ قليلا ٠

فهز الرجل رأسه فى استسلام وقال :

ـ أما تراه يتساقط بالقطن الى الارض ؟

وكان فى صوته رنين ألم كأنه يرى فلذة كبده على الارض طريحا ٠

ثم مضى الرجل قائلا :
ـ هكذا نقضى العام كله نحرث ونفلح ونروى ونعزق ثم نكافح الدود ونخرج كل يوم نقلب ورق النبات ، حتى اذا ماتم نضجه نراه يذهب هكذا فى لحظات ٠
ونظر فؤاد الى وجه السماء المغبرة آسفا ٠

وأمسك الرجل عن الحديث فقام يسوق بقرته الىحظيرتها وجلس فؤاد وحده يفكر فى هذه الطبيعة التى لا تعبأ بهموم البشر ٠ فليس القطن عندها سوى نبت قضى واجبه فبـدأ حبة ثم نما عودا ثم استوى شجيرة وآتى ثمره وبذره فليس له بعد ذلك من مأرب ٠ وأما مآرب الناس فانها لا تعنىسوى هؤلاء الذين يسخرون النبات فيما يجنون منه ٠ هـكذا يعيش هؤلاء الذين يجاهدون الطبيعة ، وهى تترفع عن النظر الى احدهم ، وهكذا يقابلون الحياة قاسية منطلقة فىسبيلها

وعادت اليه صورة من شاطىء البحر ومن رآهم عليـه يمرحون فى الصيف ٠ ايعرف هؤلاء شيئا مثل هذا ؟ ومع ذلك فهم يتحدثون احيانا عن الحياة ، وان كانوا يرونها من وراء حجاب ٠

ولما هدأ المطر سلم فؤاد على صاحب الدار وصـاح مسلما على امرأته من وراء الباب ، ثم سار فى تلافيفالقرية فى سبيله الى العزبة من ورائها ٠
ولما رأى والده بعد ذلك لمح على وجهه أثرا من كآبة وان حاول ان يخفيها فلقيه باسما ، وسأله عما فعـل فى تلك العاصفة فأخذ فؤاد يحدثه عن الدار التى دخلهاوعن صاحب الدار وما قاله مستسلما ٠

فقال ابوه :
ـ ان من يسلب هؤلاء ايمانهم واستسلامهم لقضاء اللهانما يتآمر عليهم ليدس اليهم الشقاء ٠
وصفق يطلب الخادم ثم امره ان يعد له فنجانا من القهوة ، واخرج علبة تبغ فلف لفافة منها بيده واشعلها
وخيل الى فؤاد أن وجهه كان شاحبا

وكان فؤاد يزيد معرفة بأبيه يوما بعد يوم ٠ كان من قبل لا يعرف فيه الا أبا ، ولكن تلك الايام أظهرته على حقيقة الانسان فيه ٠

واستعجله ابوه ليذهب الى القاهرة فينظر ماذا فعل صاحبه فى وساطته ٠ ثم قال له :

ـ هذه الايام ملتقى الطرق فى حياتك يا ولدى ، فلاتدع نفسك تسير فى طريق قد تندم بعد على سلوكها ٠

وذهب فؤاد الى القاهرة فأقام فيها اسبوعا يتردد بين الوزارة وبين اصدقاء والده لعله يحقق لابيه امله الذى كان عليه حريصا ٠ اما هو فقد عادت اليه صورة العود الضئيل الذى كان يضطرب فوق موج النهر الفائر ٠ فلما عرف بعد حين ان الوزارة قد اختارته لمنصب فى النيابة لم يكد يحس فرحا ٠

ثم جاءت اليه برقية تنبئه بالنبأ الفاجع ٠ لقد توفى أبوه !

وأسرع الى العزبة وهو ذاهل لا يكاد يرى ما حوله من هول المفاجأة حتى بلغ داره فوجد فيها اهل القرية حشودا كأنما هو الذى جاءهم معزيا ، وكانوا يتلقون وفود القرى ويبادرون الى الخدمة بغير ان يدعوا اليها ٠ ثم نقل جثمان الاب الى القاهرة حيث ولد ونشأ ودفن فى جوار اهله الذين سبقوه الى مضاجعهم فى مقبرة الامام ٠

ولم يستطع فؤاد ان يدع امه فى العزبة وهو وحيدها ، فانتقل بها الى القاهرة لتكون قريبة من اهلها ٠

وقضى فؤاد سائر الشتاء فى عمله حتى اقبل الربيع فاستأذن اياما ذهب فيها الى العزبة ليرى ما حدث بها بعد ابيه فأى فرق طرأ عليها !

ماذا تبدل فى حقولها وفى طرقها ، وماذا اختل فى سمائها وهوائها ؟ كانت الحقول تبدو له عند ذلك كالحة فى خضرتها والسماء كئيبة فى زرقتها ، حتى قوية وتعويضة ومبروكة ورحومة وكل هؤلاء الذين عرفهم من قبل كانوا يبدون له كأن مطالع وجوههم قد شاهت وتبدل انسها ٠ كانوا يلقونه جميعا

مرحبين ويلتفون حوله كما كانوا يفعلون من قبل ولكنهم لم يكونوا هم الذين رآهم وعين ابيه تقع عليهم ، لان ذلك الاب كان يخلع عليهم جميعا من انسه وبشره . وكانوا يذكـرون الافندى ويترحمون عليه ويقرءون الفاتحة له كلما رأوا ولده، ولكن قلب فؤاد كان لا يحس ما اعتاد من انشراح فى حيـاة ابيه عندما كانت البركة تطالعه باسمة ومن ورائها الـــكوم والقرية العالية والنخيل .

وجاء اليه رسول وهو هناك يحمل رســـالة من ابراهيم ميسور ، يعرض عليه شراء العزبة أن كان له ارب فى بيعها. وكانت امه فى حزنها على صاحبها العزيز تحسب ان العزبةهى التى أودت به . كانت تحسب انهم لو كانوا فى مدينة لوجدوا فيها اسعاف الطب ولما عز عليهم الشفاء بل لقد حسبت انموت صاحبها جريمة هواء القرية ومطرها ووبائها وقذر مياهها . لقد كان صاحبها المسكين اقوى ما يكون صحة واكثر ما يكون بشرا ، ثم رقد اياما واخذه السعال ليلتين طغت فيهما الحمى عليه كأنها شعلة نار ، ثم رأته يخمد قبل أن تفيق من صـــــدمتها الاولى . فلما علمت بما بعث به ميسور اشارت على ولدها ان يبادر الى التخلص من تلك العزبة التى اصبحت لاتود رؤيتهاولا تحب ان تطأ ارضها بقدميها . فاتفق فؤاد مع ميسور على بيعها وانقطع بذلك ما كان يربطه بالارض التى كان له فى كل ركن منها ذكرى عزيزة .

- ٧ -



كان بيع العزبة صدمة جديدة لقوية وتعويضة وكل من هناك من أهل القرية بعد الصدمة الاولى التى اصابتهم بموت الافندى . وكان ابراهيم ميسور - المالك الجديد - معروفا عندهم جميعا ، فانه كان اكبر اعيان الاقليم ، وتمتد املاكه مابين حوش عيسى والنجيلة لا يزاحمه فيها الا قليل ممن لم يقدر على ازاحتهم من سبيله .

أما الاخرون فقد كانت أرضه تحصرهم فى وسطها فمايزال يضيق عليهم مسالك مياه الرى او يسد عليهم مسارب مياه الصرف او يغرى بهم بعض من يحشدهم حوله من الفتاك حتى يلجأوا اليه يعرضون عليه شراء ارضهم خوف ان تصير بورا . فلما ملك عزبة الافندى امتدت رهبته الى الضعفاء الذين يلونها ، فقد كانوا يحتمون وراء تلك العزبة ، اذ كان صاحبها يصد عنهم عادية ميسور . ولكنهم عندما احسوا عجزهم عن المالك القوى الرهيب لم يجدوا وسيلة للدفاع عن انفسهم سوى ان ينتموا اليه وينضووا تحت ظله ، ويعدوا انفسهم له تبعا يدينون له بالولاء .

وما هى الا شهور حتى كان قد اتخذ من دار الافندى مسكنا جديدا يحل فيه احيانا ، كأنه جعله معقلا فى جبهة زحف ليغير

منه على الجانب الذى يليه . وزاد فى الدار جناحا عاليا بناه من حجارة ضخمة ، واقام سوره حصينا بعد ان كان لا يزيد على اعواد من شجيرات خضراء شائكة . واصبح ذلك البيت الهادىء الوديع يبدو تجاه القرية كأنه حصن منيع .

ووقع فى نفس قوية انه لن يستطيع البقاء فى الارض بعد ان صارت الى ميسور . كان كلما رآه تذكر اخاه سلومةالسجين الذى كان فى يوم من الايام احد اعوانه واشياعه المقربين ،ومن اجله تجرأ على عداوة الرجال ، وفى سبيل الولاء له اعتـــدى على كثير من الابرياء ، ثم مالبث ان ذاق طعم الدماء كما يذوق جرو الاسد دماء اول ضحاياه ، فضرى وقسا حتى تحجر قلبه واصبح فاتكا عابثا لا يثنيه عن شره شىء من رحمة او رهبة . بل لقد بلغ به الامر ان ارتد على صاحبه الذى راضه على الفتك فكشر له عن انيابه مخاشنا . ولكن ذلك السيد لم يمهله بل كان مثل الفهد الخفيف الحركة اذا لقى ذئبا ضاريا فبـــادر اليه قبل ان ينشب فيه انيابه ، فألقى به الى السجن ليلقى جزاءه على الاثام التى كان هو يبعثه اليها .

ولكن قوية مع ذلك لم يستطع ان يغادر الارض التى بذر فيها برسيمه وقمحه ، واعد فيها جانبا لقطنه . فآثر ان يجامل ويصانع ويدارى حتى يجنى ما زرع ، ثم يفكر بعـــــد ذلك فيما يكون . ولهذا اقام فى ارض يكاد يمقت النظر اليها .

كان يخرج الى الحقل كل يوم مع زوجته يعملان معا ،ولكنه كان يود لو وثبت الشهور حتى يقبل الخريف مرة اخرى لكى يقطع ما بينه وبين العزبة . وتنكر للقرية والجرن والبركة والنخل ، فكاد يخيل اليه ان كل ذلك قد صار عنه اجنبيـــا منذ صار فى حوزة ابراهيم ميسور . ثم قطع نفسه من بنـــاء العزبة بعد ان اتخذ له فيها دارا ليقيم بها مع زوجته العزيزة ، وآثر ان يعود الى خيمته يعيش فيها كما كان يعيش من قبل . بل لقد بالغ فى القطع ، فبعد بخيمته الى الجانب الاقصى من الكوم حتى لا يقع بصره على الدار ذات الاسوار العالية وكان رضاء مبروكة أم قوية اعظم من رضاء ولدها لانها كانت تنزوى

في كثير من اولاقات في خيمتها وتندب ولدها السجين منذ رأت وجه ميسور يطلع عليها في العزبة ٠

ولم يعبأ ميسور بشيء مما دار في نفس قوية ولا في نفس امه المسكينة ، فانه احل اتباعه في العزبة، وجعل دار قوية مسكنا للخولى الجديد،وضربت خيمة اخرى فىسفح الكوممما يلى العزبة وحل فيها خفير اخر بدوى من اتباعه ، ومضى السيد في اصلاح الارض في نشاط وخبرة كأنه يسخر من طريقـــة الافندى في الفلاحة والاصلاح ٠

وكان ميسور معروفافىأطراف ذلكالريف بانهخبيرفىالزراعة اذا وضع يده في موات احالها الى جنات وبساتين ، فشرع يمهد الطرق ويزيل الاكوام ويزرع الشجر على جوانب الجسور، فكانت العزبة تدوى بعجيج العمل كليوم منالصباح الىالمساء، وكان العمال لا يستريحون في ظهيرة ، ويبكرون في الغـدو ولا يبادرون الى الرواح في المساء كأنهم يحسون رهبة سوط من ورائهم ٠

وكانت البركة الفسيحة تفصل بين الحقول والقرية ،وهي وان اكسبت المنظر جمالا كانت تشغل فدادين عدة ولا تؤتى ثمرة فبعث ميسور اليها عماله فأهالوا عليها من تراب الكوم في دؤوب كأنهم النمل يخلى عشه في مطالع الربيع ٠

ثم دفىء الهواء ودبت الصفرة في اعـواد القمح الخضراء واشتعلت خضرة البرسيم بنوار ابيض ناصع او اصفر بهيج، فصارت الحقول من مزيج الالوان كأنها لوحة فنان ٠ وكانت تعويضة تذهب الى حقلها في الاصال ترعى غنماتها وتقطعمن سنابل القمح لتصنع منه فريكا ، على حين كان قوية في شغل من قطنه يعزقه ويرويه ويصابحه ويماسيه كأنه أم تتعهـــد رضيعا ، فاذا اصبحبكر اليه يقلب اوراقه ليرىهل تركت عليه فراشه الدود (لطعا) من بيضها المخيف ، واذا امسى ذهب مرة اخرى يقلب ورقه ليرى هل خرج وسواسه فآذن ان يزدهر، او يميل على خطوط البقل والبطيخ ليرى هل اخرج شطأه ٠

ومر ميسور في اصيل يوم بحقل قوية وكانت تعويضـة

هناك ، فمال عن طريقه يسأل عمن هناك . واستقبلته تعويضة في شيء من الرهبة التي كانت تسبق اسمه الى القلوب ، فلم تبسم ولم تتجهم ، بل قامت نحوه عندما ناداها .

وقال لها :

ـ ما اسمك يا بنت ؟

فقالت في صوت خافت :

ـ تعويضة .

فنظر نحوها لحظة ثم قال :

ـ اسم غريب لم اسمع مثله . ولكنه اسم حسن .

ومن أبوك ؟

فقالت مقتضبة : رحومة .

فقال : ذلك البدوي الخامل ؟

فغضبت ولم تجب .

فاستمر وهو يبتسم :

ـ أهذا الشيخ أبوك انت يا تعويضة ؟!

وأطرقت تعويضة مرتبكة .

فاقترب منها وقال لها :

ـ وكيف لم ارك من قبل ؟

فنظرت اليه في شيء من التحدي قائلة :

ـ وفيم تراني ؟

فقال في تودد :

ـ أما كان واجبا عليك ان تعرجي علينا ؟ ألست مثل فتيات العزبة اللاتي يأتين كل يوم الينا ؟

فقالت في جفاء :

ـ ما كنت خادمة .

فقال لها السيد ولم يغضب :

ـ ومن قال انك خادمة ؟ ألست جارتنا ؟ أأنت متزوجة ؟

فقالت له في شيء من الحنق :

ـ نعم .

ونطق عند ذلك احد اتباعه من ورائه قائلا :

ـ هى امرأة قوية ٠
فنظر الى الرجل الذى وراءه قائلا : قوية ! جازاه الله ، انه كذلك لا يزورنا ٠ سلمى عليه يا تعويضة ٠
ثم سار فى طريقه ينظر الى الحقول ويشير الى يمينه تارة والى يساره تارة ، ويلقى أوامره بغير ان يلتفت الى ورائه ، وكان اتباعه يبادرون الى الاجابة فى أصوات عالية فيها رنين الخضوع ٠
وقصت تعويضة على زوجها ما حدث عندما عاد الى خيمته فى المساء ، فاستمع اليها صامتا حتى فرغت فلم يجبها الا ان قال :
ـ احسنت الاجابة ٠
وقضى سائر المساء ساهما ٠
ولم يكن ذلك اخر عهد تعويضة بالسيد ، فانه كان يمر بحقلها بين يوم ويوم كأنه كان يتعمد ان يجعل طريقه من ناحيتها ، فاذا رآها وحدها وقف يحدثها ملتمسا الى الحديث عللا ٠ فكان احيانا يأمرها ان تؤدى له خدمة تافهة ، ويطوى فى ثناياامره وعدا بالعطاء،وامرها يوما ان تصنع له بعض الفريك فلما اطاعته في ذلك رد لها اضعاف الفريك ارزا ٠ ورأى يوما معها (حملا) من صوف ملون فسألها عمن صنعه ، فلما اخبرته انه من صنع امها امرها ان تصنع له مثله ليتخذه كساء لسرج فرسه ، وقال لها :
ـ أليست هى التى نسجت للافندى سرج بغلته ؟
فقالت تعويضة : الله يرحم الافندى !
فأخرج السيد جنيهين ورقا وقال :
ـ خذى هذين لتشترى امك بهما صوفا ٠
فردت تعويضة النقود قائلة :
ـ سوف أقول لأمى اولا ولك أن تدفع ثمن الصوف اليها٠
ولكنه ابى وأصر قائلا :
ـ أترفضين ما اعطيك وانت مثل احدى بناتى ؟
وكادت تقذف الورقتين اليه لولا من كان هناك من اتباعه،

فارتبكت وعلاها الخجل وترددت حتى مضى السيد عنها .
وكانت فى كل مرة تفضى الى قوية بحديث السيد وبما تجيبه به، فكان قوية بين حين وآخر يقضى ليلة مسهدة يتقلب فى فراشه حانقا .

وبعث السيد اليه ذات صباح من الصيف ليغدو اليه فى الدار ،وما كادقوية يسمع الدعوة حتى دق قلبه وانقبض صدره، وخطر له اول شيء ان يغفل الدعوة متحديا . ولكنه فكر فيما قد يجره ذلك عليه ، وكان كل همه ان يدارى السيد حتى يقطع ما بينه وبينه فى الخريف اذا ما جنى ثمرة قطنه .

وذهب الى أمه حائرا فقص عليها قصة الرجل ، وصمتت امه لا تجيب حينا حتى حسب انها لا ترى فى الامر رأيا .

ثم قالت له فى صوت خافت :

ـ اذهب اليه يا ولدى ! وليكن الله معك يحرسك .

ان سلومة عندما ذهب اليه اول مرة على اثر دعوة مثل هذه لم يأت الى ليسألنى عن رأيى ، ولم أدع له الله ان يحرسه، كما ادعو لك الان يا ولدى . اذهب اليه ولا تخشه اذا كنت رجلا .

فذهب قوية ثابتا نحو الدار العابسة العالية ، وخيل اليه وهو سائر ان ذلك الرجل لن يقوى على مواجهته .

ودخل الدار وكانت اول مرة يدخلها منذ آلت الى ميسور . ووقعت عينه على الساقية التى طالما جلس مع فؤاد تحت ظل شجرتيها . كانت الحديقة يانعة الخضرة فيها بقل وخضر وبطيخ وكانت طرقها نظيفة ،ولكن لم يكن على الساقية شجرتا الجميز . اهكذا يزول من الارض كل اثر اصدقائه ؟

ودخل الى القاعة الكبرى فرأى السيد فى صدرها ومن حوله بعض اتباعه جلوسا على الارض فى الركن الاقصى او وقوفا .

ولما وقعت عين السيد عليه قال باسما :

ـ مرحبا بك يا قوية .

فقال قوية فى شيء من الارتباك :

ـ مرحبا بك يا سيدى .

فقال ميسور : لم ارك منذ طويل ، ألست معنا ؟

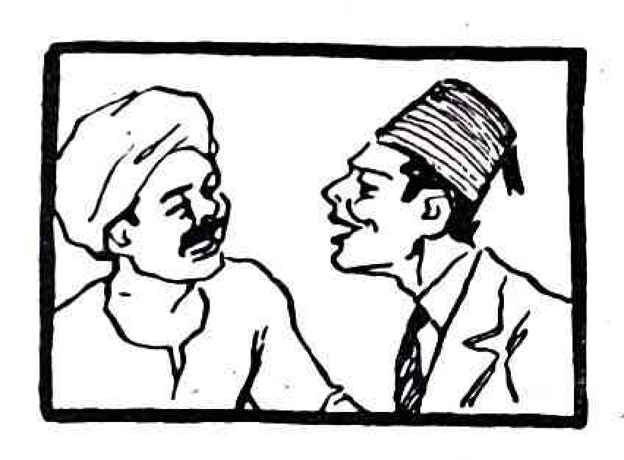
فقال قوية : العيش يشغلني يا سيدى ٠ ٠
فقال السيد باسما : لم ارك منذ سنين يا قوية ؟ لقد صرت رجلا ٠
فقال قوية : الحمد لله وكل صبى يصير رجلا ٠
فقال السيد : أكنت هكذا دائما لا ترى الناس ؟ لقد بلغنى عنك أنك كنت مع الافندى على غير هذا ٠
فقال قوية فى اخلاص : رحم الله الافندى !
فقال السيد فى شىء من الحدة : ومتى عرفته ؟ أقد رباك يا قوية ؟!
فقال قوية : عرفته فى الوقت الذى لم يعرفنى فيه احد ٠
فقال ميسور وهو يتكلف الضحك :
ـ ما أفصحك يا قوية ! انك تذكرنى بأخيك ٠
فأجاب قوية فى شىء من الاندفاع :
ـ يرحمه الله ايضا ٠
فتضاحك ميسور قائلا :
ـ معاذ الله يا جذع ! لقد تألمت من اجله كثيرا ٠
فقال قوية فى شبه سخرية : الله يحفظك !
وسكت السيد لحظة ثم قال : بلغنى انك تزوجت ، مبروك!
فقال قوية بصوت أجش : الله يبارك فيك ٠
فقال السيد : وكيف حالك معها ؟ يظهر انها طيبة ٠
أهى ابنة رحومة ؟ ما اسمها ؟
فقال قوية : هى بدوية مثلى ٠
فأعاد ميسور : نسيت اسمها ٠
فصاح احد الاتباع :
ـ تعويضة !
فقال ميسور : اسم لم اسمعه من قبل ٠
ونظر قوية حوله كأنه يبحث عمن نطق باسم زوجته ، وعلا شىء من الحمرة وجهه الاسمر ٠
وقال السيد : تعال يا قوية ، اجلس فانى أريد أن أكل اليك عملا هاما ٠

ففال قوية : أنا مستريح هنا ٠
فقال ميسور : كل شيء فيك يذكرنى بأخيك حتى عناده ٠ ومع ذلك فقد كان عزيزا عندى ٠
فقال قوية : لا سبيل الى أن يسمع أخى منك هذه التحية ٠
فقال ميسور : أراك تصدنى يا قوية ، وقد بعثت اليك أريد لك خيرا ٠
فقال قوية : أشكرك يا سيدى ٠
فقال ميسور : يسرنى أن أراك قريبا منى ٠ كم فداناتستأجر منى ؟
فقال قوية : عندى ايجارة الافندى ٠
فارتد ميسور لحظة ثم قال : كم كان يؤجر لك ؟
فقال قوية : لم أطلب الا خمسة أفدنة ، وكان يعطينى ما أسأله ٠
فقال ميسور : ما أعظم حبك له !
فقال قوية متحديا : رحمه الله
فقال ميسور يخفى غضبه : يسرنى أن أسمع هذا ، فأنت شاب تقدر الجميل ٠
فسكت قوية ونظر حوله فى شيء من التردد ٠
ومضى ميسور مستمرا فى قوله : لم بعدت عن سكن القرية ياقوية ؟ لقد أخبرنى الخولى أنك تقيم بعيدا عن هنا ٠
فقال قوية فى جفاء : أنا سعيد حيث أنا ٠
فقال السيد فى ضجر : عجيبة ! أكنت تقول للافندى مثل هذا ؟
فقال قوية متحديا : ومالنا الان به يا سيدى ؟
فقال السيد محتدا : كأنك تجازينى بهذه الاجوبة على تقريبى لك ٠
فقال قوية : أنت يا سيدى عظيم ولا يضرك أن يقيم مثلى فى خيمته بعيدا ٠ انى أحب أن أسرح بصرى فى الافق كما كنت أفعل فى الصحراء صبيا ٠
فقال ميسور :
ــ كدت أنسى انك بدوى وليد الصحارى ٠٠

فقال قوية : ولكنى لم أنس ذلك يا سيدى .
فقال ميسور : فلا تريد ان تقرب منا . ما كان اخــوك هكذا .
فقال قوية فى دفعة : دع أخى فهو فى سجنه .
وتحرك يتأهب للمســير قائلا : أتأمرنى بشىء يا سيدى؟
فقال السيد : أتريد ان تسرع الى خيمتك ؟
فقال قوية : اذا لم يكن لك أمر تأمرنى به .
فقال ميسور مظهرا الرضا : أشكرك يا ولدى ، وكان بودى أن أجعلك للعزبة خفيرا . ولكن .
ونظر الى وجه الفتى .
فقال قوية : شكرا لك يا سيدى .
فقال ميسور : كنت اريد ان اخلى لك دارا حسنة هنا ، تجد فيها مكانا لغنمك وبقرتك .
فقال قوية : أحب أن أبقى فى مكانى اعمل فى حقلى واعيش فى خيمتى .
فقال ميسور غاضبا : فأنت ترفض ؟
فقال قوية : دعنى حيث أنا يا سيدى .
فقال السيد مهددا :
ـ اذن سوف انظر فى امرك .
فقال قوية : هذا لك يا سيدى .
وعند ذلك اندفع السيد غاضبا كأنه كان يمسك نفسه قسرا عن غضبه ، فانفلت فجأة من زمامه منفجـرا وقال فى صوت مجلجل :
ـ لقد اخطأت اذ حسبتك اهلا لاكرامى ، فجرأك لينى على مراجعتى وصدى حتى وقفت فى وجهى تراجعنى فى كل لفظ وتعصى امرى . فاذهب اذن وستعرف انك كنت احمق الناس واسفههم رأيا .
فوقف قوية هادئا امام دفعته قائلا :
ـ وما الذى اغضبك منى حتى تصيح بى هكذا ؟ لقــد سألتنى فأجبتك كما يجيب الانسان انسانا .

فصاح السيد واشتد حنقه :
- انسان وانسان ؟ عمى فى عينك ايها الولد الوقح ٠
وقام من مقعده ثائرا ٠
فالتفت اليه قوية وصلب قامته قائلا :
- حسبك هذا ٠ أنت سيد عظيم وما ينبغى لك ان تتعرض لجوابى ٠
فصاح الرجل مرة اخرى :
- جوابك ؟ اتهددنى ؟
فقال قوية معليا صوته :
- نعم جوابى ٠ لست عبدا لاحد ايها السيد ٠
وقام الاتباع فاقتربوا من السيد ناظرين الى قوية فى حنق
وقال قوية وقد زاد صوته شدة :
- أنا قوية الفقير الضعيف ، ولكنى قوية ٠ فماذا تريد منى ؟
فهدأ الرجل نفسه وجلس قائلا :
- هذا حسن ! لقد كنت مخدوعا ٠ كنت اظن انىسأجد عندك شكرا وجوابا غير هذا ٠
وانفتل قوية يريد الخروج ، فقال ميسور يحدث اتباعه فى صوت ساخر جامد :
- دعوه حرا ٠
وذهب قوية الى أمه وامرأته فقص عليهما ما كان بينهوبين الرجل الرهيب ، وكانت امه تنظر اليه صامتة جامـــــدة ، وتعويضة تضع كفيها على جانبى وجهها فى فزع ٠
ولما فرغ قال هادئا :
- كلها شهران فلا نبقى هاهنا ٠٠ لقد علمت ان لا مقام لنا فى هذه الارض بعد موت الافندى عليه رحمة الله ٠
وخرج الى حقله يسحب بقرته وامرأته تسير الى جنبهتسوق غنمها ٠

- ٨ -



شغل فؤاد بعمله الجديد فى النيابة ، وكان فى جدة عمله ما يملأ كل فراغ وقته . وكان دائما يذكر صديقه (سعيد) واخته علية ، ويتمنى لو جلس اليهما بعد كل يوم فى الامسية الهادئة لينعم بحديثهما . فلو عرفا مافى هذه الحياة التى اخذ يطلع عليها لوجدا فيها كثيرا مما غاب عنهما . كانا ينظران الى الحياة من بعيد كما ينظر المنعم من نافذته العالية من وراء زجاجها الشفاف وستائرها الحريرية ، فاذا رأى تحت نظره امرأة مهلهلة الثياب تسير على سطح الارض مهتزة من الضعف ، وتجمع بيديها السوداوين بقايا القشر من صندوق القمامة ، سأل نفسه اهذه العجوز التى تتطوح فى قذرها تحس شيئا فى أعماق قلبها ؟ ألها أفراح تطرب لها أو أحزان تئن منها ؟

كانا يبصران من الحياة ألوانا زاهية أو قاتمة ، يجدان متعتهما فى تصورها وفى تصويرها كأنها نوع من اللهو أو تزجية الفراغ ثم يهتز قلباهما هزات رفيقة تبعث فنهما الى الابداع ، ولكنهما كانا لا يزيدان على أن يرسما لها لوحة تحرك قلب كل من يراها ، أو يمدان أيديهما بفضلة من الخير يملقان بها كبرياءهما . هكذا كانت تفعل علية ، وهكذا كان يفعل

سعيد كل على طريقته . ولكن (فؤاد) قد شاهد الحياة عن قرب ولمس ما فيها ، وأحس لذعة آلامها وعنف دوافعها وخوالجها . كان يدخل للتحقيق الى بيت الارملة المسكينة التى ذبحت فى الليل ذبحا عندما ذاع فى القرية أن جنيها هبط اليها من بعيد اذ بعث به اليها ولدها الذى هاجر فى الشتاء من قريته بالصعيد ليعمل نهارا وليلا ، فاذا جال فى البيت لم يجد به شيئا من أثاث ولا قطعة من طعام ، فيسأل نفسه كيف طعم الحياة لمثل هذه المسكينة وهكذا أخذ فؤاد يعرف الحياة عن قرب فى حرها وزمهريرها وفى ضعفها وفجورها وفى اعطائها وحرمانها ، وتمنى لو عرف سعيد وعلية شيئا مما عرفه . وكان احيانا يكتب ما يثور فى نفسه حتى لا ينساه اذا لقيهما فى مدة الاجازة التى يقضيها معهما فى الصيف الى جانب الشاطىء الوديع فى سيدى بشر وان كان شاطىء سيدى بشر قد هجر فى أيام الحرب الطاحنة التى اندلعت نيرانها فى الخريف الماضى اذ كانت الحرب قد بدأت وانطلقت آثار العلم الحديث تتدفق على السهول فتفيض عليها هولا وتخريبا وفظاعة .

وجاء فصل الصيف وأراد فؤاد ان يقضى منه اياما فى الاسكندرية . ولكن الاسكندرية كانت مدينة مهجورة او تكاد تكون ، فان اكثر ثراتها هجروها وذهبوا الى الريف أوعواصم الاقاليم لائذين بظلمتها وبعدها وسذاجة الحياة فيها ، فان من بركة هذه الاركان أنها غير جديرة فى نظر الجيوش المتحاربة بأن تبعث اليها قنبلة !

وبعث الى سعيد فى الاسكندرية يستعيد به صلته ، ولكنه لم يتلق منه جوابا . ثم أتى اليه كتاب منه بعد أسبوعين يعتذر عن تأخره بأنه تلقى الخطاب متأخرا ، بعد أن حول اليه من بلد الى بلد حتى جاءه فى القرية البعيدة التى نزح اليها . اذن فقد نزح سعيد وأخته الى الريف ، كما نزح غيرهما من السراة ، وما كان ليحب أن يذهب الى الاسكندرية وهما بعيدان عنها .

فذهب فى القاهرة على كره ، فان حرها كان من قبل يبعث اليه ضيقا ويسبب لجسمه السقم • ولكن أمه كانت فيها ولم يكن له سبيل الى غيرها • وكانت القنابل تهزها بين حين وحين ولكنها مع ذلك لم تخل من أهلها كما خلت الاسكندرية • أكان أهل القاهرة أكثر وفاء لها ؟ أم هم أكثر ايمانا واطمئنانا ؟ أم هم أكثر غباوة وأقل قوة فى الخيال • كان يسمع الناس فى الطريق يقولون ان القاهرة اذا هوت كان عليها اسماء الضحايا مقدورة منذ الازل • أهذا من دلائل القوة ، أم من علامات الذهول والاستسلام الغبى ؟ ولكن أهل القاهرة كانوا يمسون على فرقعة الآلات الجهنمية ، ثم يصبحون غادين الى أعمالهم فى ثبات • فاذا دهمتهم فرقعة جهنمية أخرى فى نهارهم أظهروا لها هدوءا عجيبا ، وما هكذا يكون الاستسلام الغبى، ان هو الا ايمان واطمئنان واستبسال يبعث الى الاستهانة بالاخطار •

لقد زاد ايمان فؤاد فى تلك الايام السوداء بثبات قومه وقوة جنانهم ، فما ذلك التسليم للقدر الا أثر من تجربة امة شهدت من أحوال الحياة ما لم يشهد سواها ، وعرفت من الخطوب ما لم تعرفه الامم الاخرى •

ومع ذلك فقد كان يضيق احيانا بحر المدينة فى النهار فيتذكر الايام التى كان يقضيها فى العزبة ، ويتذكر الكوم القديم والبركة والنخيل والدار العزيزة التى تركها لابراهيم ميسور ويود لو رآها مرة اخرى •

وكانت صورة تعويضة وزوجها قوية تعود اليه باسمه هشة بشة كأنها ترحب بمقدمه اليها • أكان قوية راضيا عن زواجه؟ أكانت تعويضة سعيدة ، تلك الزهرة الباسمة فى خميلة شوكها بقطعة من الصحراء ؟ ولكن أنى له رؤيتهما ، وقد صارت العزبة غريبة عنه بعد أن ملكتها يد أخرى ؟

وكان كلما امضه الحر خرج الى اطراف المدينة يبترد فى أوقات الاصيل أو يمد نزهته الى صدر من الليل تحت ضوء القمر ، فان القاهرة وان قست بحرها فى النهار تتجلى فى ليلها كأنها قطعة من الخلد • فنسيمها وصفاء سمائها ولمعان نجومها

وجفاف أنفاسها ، كل ذلك يذهب بعناء النهار الذى مضى بحره ووهج شمسه فلا يلبث المكدود أن ينسى كد يومه كأنه حلم كريه مضى ، أو كأنه يزيل ما أصابه من الكد فى حلم سعيد غمره ٠

وذهب فؤاد يوما الى حديقة الحيوان ، وكانت منذ صغره تحرك نفسه بجمال تنسيقها ، وتشرح صدره ببهاء منظرها ٠

وسار فى تلافيف طرقها فوقف عند حظائرها يتأمل ما بها من ظباء ووعول او كواسر من الوحوش ٠ ووقف عند حظيرة الاسود وكان دائما يحس نوعا من المتعة القاسية عندما يقف عندها ٠ كان بها أسد ضخم يسرع الخطا فى رقعة حظيرته الضيقة ، فما يلبث أن يبلغ مداها فيرتد عائدا فى عنف ويحك رأسه وصدغه بقضبانها ، فاذا خطا خطوتين بلغ طرفها الاخر فارتد وما يزال عنيفا دائبا، اذ كان الامل ما يزال يطمعه فى الخلاص ٠ وقف فؤاد حينا أمام الحظيرة كأنه يسأل الاسد عما يحس عندما يرى هذا البشر الضعيف واقفا من وراء قفصه ؟ ونفر الاسد عند ذلك نفرة فزع فؤاد لها ، كما فزع من كانوا معه وقوفا امام الحظيرة ، وضحكوا بعد ذلك وارتدوا عن السور الذى يفصلهم عن الحظيرة كأنهم كانوا فى مزاح ٠ أليست المقادير قاسية على هذا الاسد اذ جعلته جبارا مخيفا ؟ أما كان خيرا له لو خلق قطا أليفا أو دابة من دواجن الارض تعيش مطمئنة لا يخشى بأسها ؟

وسأل فؤاد نفسه ماذا يكون حال الاسد لو خلا من عنفه وبطشه ، واستطاع أن يألف وان يؤلف ؟ أليس خوفه والخوف منه هو الذى أنمى مخالبه هذه الباطشة وأنيابه هذه الفتاكة؟ أليس الخوف هو الذى جعله دائم التكشير عن أنيابه دائم الحنق على من يلقاه ؟

وتذكر حال هذه الامم المتحاربة التى لا تختلف فى شىء عن هذا الاسد الوحش الا فى نوع العدة التى تقاتل بها ٠ أليس الخوف هو الذى أنمى مخالبها وأنيابها وملأ قلوبها حنقا وكرها؟

الا ما اشقى ذلك الاسد فى بطشه وعنفه وهو يذرع قفصه الحديدى فى قلق وحنق ! حقا ان السعادة لا تجد سبيلا الى القلوب التى تمتلىء حنقا وعنفا وبطشا • وخيل اليه فى تلك اللحظات ان تلك الامم القوية الباطشة لن تعرف الى السعادة سبيلا الا اذا تخلت عن عنفها وبطشها معا •

وما زال يتنقل من حظيرة الى اخرى ومن خميلة الى خميلة ومر بشجيرات شائكة فيها أزهار بيضاء ناصعة تزين أطرافها صفرة فاقعة ، وتخرج من ثغورها أهداب دقيقة فكانت بديعة فى شكلها ظريفة فى لونها • فتذكر لوحة سعيد ، وتذكر تعويضة البدوية الحسناء • وتساءل أيستطيع ان تقع عينه مرة أخرى عليها ؟ وتذكر علية ولكنها كانت زهرة أخرى • كانت منعمة كتلك الازهار فى الاحواض السهلة التى تمد جذورها الصغيرة القصيرة فتروى على هينة من الماء المتدفق اليها •

ووقف حينا أمام حظائر القردة وهى صنوف شتى بين صغير وكبير ، ومن ألوان شتى وهيئات تفرق بينها فروق أبعد مما يفرق بين الاسود والضباع • ومع ذلك فهى جميعا قردة فى أعين الواقفين حول حظائرها لا يعبأون الا أن يلهوا بمناظرها •

كانت القردة سعيدة كأنها لا تبالى ضيق سجونها ، بل لعلها هناك اسعد حالا لانها تجدقوتها وتأمن غائلة اعدائها التى تفتك بها فى الغابة • ولكن أهى هناك أسعد حظا من الاسود الباطشة الحانقة التى تتطلع الى منفذ فى قضبانها لتستعيد حريتها حتى تستأنف افتراسها وبطشها ؟ ان الحرية ليست أمنية الانسان وحده ، ولو وجدت تلك القردة فرصة فى قضبان أقفاصها لبادرت خارجة منها منطلقة من عقالها سعيدة بأنها ظفرت بحريتها ، ولن تعبأ بما يصيبها بعد ذلك من تلك الحياة الحرة •

وود فؤاد لو أتمت حديقة الحيوان مجموعتها فأضافت اليها أشرف أنواع الحيوان وأشدها بطشا وفتكا ـ الانسان •

ولكن أتتسع حديقة مثل هذه لانواع ذلك الجنس الارقى ؟ ان منه صنوفا يختلف بعضها عن بعض وفيما بينها من الفروق

ما لا تراه عين فى صنوف الحيوان الاخرى · فمنه الاســـود والاشقر والاصفر والاحمر ومنه القمىء الضئيل الجسم ومنه الطويل الضخم وفيه ما يبلغ ذكاؤه مرتبة الشـــياطين التى تسترق السمع من تحت عرش الله ومنه ما لا يرتفع فى ذكائه فوق مرتبة الطفولة ·

على أن من ذلك الحيوان صنفا فاتكا يفترس رزقه كالاسود ومنه صنف ختال يحتال على قوته فيختلسه كما تختلس الطيور أو الثعالب أو القطط والكلاب أرزاقها ·

فلو عرض ذلك الانسان على اختلاف هذه الصنوف والمراتب لما وسعه سوى هذه الارض التى تكاد تضيق به على سعتها ·

وضحك فؤاد عندما تمثل ذلك العالم الفسيح كله حديقــة ضخمة لذلك الحيوان العجيب ، وآنه يضطرب فيه قلقا سجينا كما تضطرب هذه المخلوقات فى أقفاصها ، تطلب حريتهــا · ولكن الانسان قدخدع نفسهعن الحرية وضللته احلام البطش والسيادة حتى بلغ من قلقه وضيقه فى سجنه الفسيح انه يجاهد وينفق اكثر ما وهب الله له من ذكاء فى التدسس الى اسرار الطبيعة ليظهر منها على سر يعينه على تدمير الحياة ؟ أليست هذه الاسرار التى يعكف على كشفها نوابغ العلماء ابشع من مخالب الاسود وأنيابها ؟

ولو عرف الانسان صنفا من الحيوان يقضى نهاره وليله باحثا عن أنواع السموم فى الغابات ليقضى بها على جنسه ، أو عاكفا على تدبير آلات الفتك والتخريب لكى يذل بها سائر أبنـــاء صنفه ، لعده نوعا من أخبث الانواع ولاتخذ له قفصا شائكا يحجب النظارة عن الاقتراب منه الا أن يلمحوه من بعيد صورة من صور الشر الكريه · ولكنه هو الانسان سيد أصـــناف الخليقة لا يريد ان يرى عيوب نفسه ·

وفيما كان فؤاد يسير مناجيا خواطره فى شعب بديع تظلله الاغصان المتدلية المزدهرة تمثل ألوان الشفق ، رأى أمامه رجلا من أهل القرى يسير الهوينى · وكان فى مشيته وصورة قامته ما استرعى انتباهه ، فأسرع فى خطوه ليسبقه حتى يرى وجهه

وما كاد يراه حتى وقف مدهوشا • فأية مصادفة هذه التى تلقى قوية فى سبيله ؟

فصاح بغير وعى : قوية !

واندفع قوية اليه وهم بفتح ذراعيه كأنه يريد ان يعانقه ، ثم امسك ومد يده يصافحه فى حماسة مصافحة البدوالمكررة• فنسى فؤاد نفسه ومن حوله ممن كانوا يتطلعون اليه باسمين، وانتحى به جانبا ، فأخذ يسأله عن حاله ومكانه وأهله ، وكان قوية يجيب فى نبرات متهدجة فيها ذلك الجرس العذب الذى كان يطرب فؤاد له •

وقال فؤاد : كيف خالتى مبروكة ؟

فصمت قوية لحظة ثم قال : البركة فيك •

وعلا وجهه غشاء من الحزن •

فنطق فؤاد ببعض ألفاظ مواساة يعزيه فيها ، وأحس حسرة صادقة كأنه فقد صديقا حميما •

ثم عاد الى الحديث يسأل قوية عن تعويضة وغيرها ممن عرف وعن حال الداروالعزبة والحقول والكوم ،وكان قوية يجيبه عن ذلك ويضيف من عنده بعض ذكريات من أحداث تافهة مرت بهما يعرف أن لها فى نفس فؤاد ذكريات عزيزة •

ودعاه فؤاد الى قضاء اليوم معه ، فتنقل به فى أطراف القاهرة الفسيحة كأنه يرد اليه بعض دينه القديم ، اذ كان يجول به فى حواشى الريف أو يخرج به الى الصيد فى المناقع المعشبة •

وكان قوية قد امتلأ جسمه وحسنت بزته وخيل الى فؤاد أنه مغتبط بالحياة • ولم لا يكون مغتبطا وهو زوج تعويضة ؟ وتردد فى أن يسأله عنها مرة أخرى حتى يـأتى هو بشىء من سيرتها ، ولكنه لم يستطع أن يصبر طويلا فسأله •

ـ لم لا تحدثنى عن تعويضة طويلا ؟ اننى أذكـــرك كثيرا وأذكرها ويشتد بى الشوق أن أراك وان أراها •

فقال قوية فى حماسة :

ـ تكون أسعد ساعة عندنا لو جئت لزيارتنا • ولو علمت تعويضة بأنى فى القاهرة ألقاك لما تركتنى أسافر اليها وحدى•

وكان وهو يتحدث طلق المحيا تلمع عيناه بنور من الحماسة والبشر . فارتاح فؤاد وأحس نحو الرجل عطفا كأن ذكر **تعويضة يصل بينهما سببا من المودة متينا .**

وكانا عند ذلك يسيران على جانب النهر فى الجزيرة الخضراء فى ليلة مقمرة من ليالى الصيف الرائعة ، والكروان يملأ الفضاء صداحا ، والاشجار الحانية على جانبى الطريق تجعل المنظر كأنه قطعة من عالم خيالى .

فقال فؤاد :

ـ أليس هذا المنظر بديعا يا قوية ؟ آفى ريف العزبة منظر يشبه هذا ؟

فنظر قوية حوله قائلا :

ـ لو علمت أننى أرى مثل هذا المنظر لاتيت بتعويضةمعى . لقد كانت تود لو صحبتنى فان عليها نذرا للحسين تريد ان توفيه ، ثم تزور مشاهد أهل البيت والاولياء ، وتقضى يومافى حديقة الحيوان .

فضحك فؤاد فى نفسه،فلو كانت تعويضة معهما لما استطاع ان يسير بها فى مثل هذا الركن البديع من الجزيرة خشية من سخرية الانظار .

وقال لقوية :

ـ ألا تنشدنى من أغانيك القديمة فى مثل هذا السكون ؟

فانطلق قوية غيرمتردد يترنمبأنشودة تعويضة ليلة زفافها :

صغير غادى فى النوار   منور مثله وعوده زين

وفيها يشبهها بعود الحورعلى شاطىء الترعةالحلوة وبزهرة الفول فى الصباح النادى وبنسيم الربيع اذا وسوس بين الاغصان وبالجدول الصافى اذا شرب منه الظمآن .

وكان صوته متهدجا يرن عذبا فى السكون العميق .

فقال فؤاد :

ـ وكيف أبوها ؟

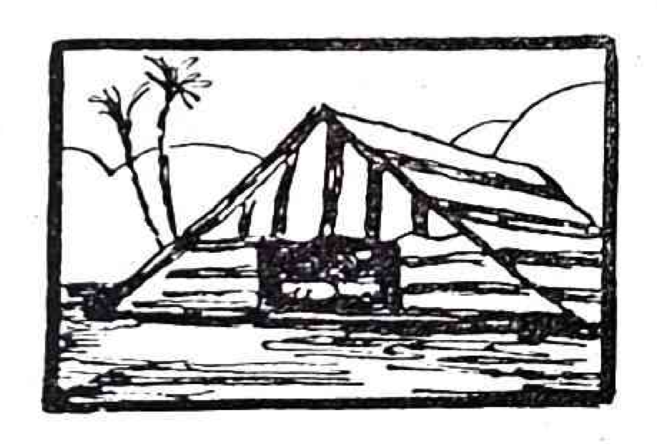
فقال قوية :

ـ كما تركته ياسيدى .

فقال فؤاد ضاحكا :

ـ أما يزال نائما فى ظل النخيل ؟
فهز قوية رأسه قائلا :
ـ لقد بعدنا عن النخيل يا سيدى ٠
فصاح فؤاد :
ـ أخرجت من الارض ؟
فقال قوية :
ـ لم نبق بها الا لاخر العام حتى جمعنا ثمرة زراعتنا ٠
واخذ يقص عليه ما كان بينه وبين ميسور ثم قال :
ـ وبدأت بينى وبين ميسور حرب صامتة حاول فيها أن ينزل علينا صنوفا من العقاب ، وصار يقف دونى فى كل خطوة احاول ان أخطوها ، حتى ضاقت فى وجهى مسالك الحياة ٠
وكدت اقابله ثائرا لادفعه عن نفسى ولكن تعويضة منعتنى فباعدت ما بينى وبينه فاستأجرت قطعة من ارض الخواجة بشارة التى فى الناحية الاخرى من الكوم ٠ وعدت الى خيمتى القديمة وفتح الله على فأشتريت بقرة فوق بقرتى وزادت غنمات تعويضة حتى صارت قطيعا ، وما تزال أمها عاكفة على مغزلها ونولها ، ورحومة يملأ علينا الديار مرحا ٠ وقد اتخذ لنفسه خيمة وحده ، ولم يطرب صاحب قصر مثل طربه بخيمتـــه ، فقد اظهر للناس جميعا انه بدوى حقا ٠ فنحن بحمد الله سعداء فى جوار كومنا ، واذا شرفتنا يوما بزيارتك فانها تزيدنا سعادة ٠
وكان فؤاد يستمع الى حديثه الساذج باهتمام وغاب فى تفكيره حينا ٠ أيضر هؤلاء أنهم يعيشون وحدهم يسرحـــون أبصارهم فى الافق فلا تعثر على شىء تحب ان تصرفه عنه ؟ وجعل يسأل فى نفسه ماهى السعادة ؟
وكان الليل قد أوشك أن ينتصف وتكبد البدر السماء ورنت فى الفضاء سجعة من سجعات الكروان ، ثم أعقبهــا نعيب طويل مخيف فكاد فؤاد يثب عن الارض خوفا وتلفت قوية حوله سائلا :
ـ ما هذا ؟
فقال فؤاد فى فزع :

ـ صفارة الانذار ٠ أسرع بنا يا قوية ٠
وكانا يتجهان الى (كوبرى) قصر النيل وما تزال دونهما مسافة طويلة ، فجريا نحو المسجد القائم على شاطىء النهر اذ لم يجدا ملجأ قريبا سواه ، فدخلا اليه يستظلان بسقفه ، وكان الظلام حولهما كثيفا ٠
واندلعت اصوات المدافع تدوى من جوانب الارض ومن اطباق السماء ، كأنه يوم الفزع الاكبر اذ تزلزل الارض زلزالها ٠ وكان قوية أثبت من صاحبه جأشا ، ولكنه كان بين حين وحين يتمتم فى صوت خافت « لا حول ولا قوة الا بالله ! » ٠ ومضت ساعة طويلة ثم سمع صوت طويل فقال فؤاد : الحمد لله ! هذه صفارة الامان ٠
وخرجا الى الشاطىء يسرعان نحو الدار فى صمت ٠
وانزل فؤاد صاحبه فى غرفة اعد له بها فراشا ، ثم استأذن قائلا :
ـ تصبح على خير يا قوية !
فقال : وأنت أهل للخير ياسيدى ٠ سأقوم فى الصباح الباكر عائدا الى قريتى ٠
فقال فؤاد : بل تقيم معنا يومين ٠
فقال قوية :
ـ أشكرك يا سيدى ، ولكنى قد اخرج قبل ان اراك ٠ فسأبكر فى الصباح عائدا الى قريتى ، وحسبى من القاهرة أننى رأيتك ٠
فودعه فؤاد فى حرارة ، وقال قوية مؤكدا :
ـ عدنى اذا مررت قريبا منا ان تعرج علينا ٠ ستسر تعويضة اذا رأتك يوما ٠
فقال فؤاد وهو يهز يده :
ـ سأفعل يا قوية ، ولا تنس أن تبلغها تحيتى ٠



مرت أربع سنوات على فؤاد وهو فى عمله ينتقل من اقصى البلاد الى اقصاها ، لا يكاد يستقر فى بلد الا قليلا ٠

وكان عمله يشغله فى ليله وفى نهاره وهو كلما عاد من تحقيق مأساة تستقبله أخرى ، حتى أوشك أن يضيق بنفسه ويسىء ظنه بالحياة ، اذ كان لا يطلع منها الا على القسوة والعنف والوحشية ٠ كانت الحياة تطالعه ساخرة كما تطالع الغابة الصياد الذى يجوس خلالها ٠ فهناك رأى القاتل الفاتك يهوى على فريسته يطلب حياته صريحا ساخرا كما يطلب الوحش فريسته فى غير رحمة ، فاذا تغلغل الى قلبه ليسبره ويعرف ما بعثه على جريمته انقلب عنه حائرا لا يدرى ما الذى ذهب بانسانيته ٠ وهناك رأى الضعيف الذى لا سند له يقف وحيدا فى عالم موحش يلقاه فردا ٠ وهناك رأى نزغات النفوس من جشع وأنانية ، وشهوة بهيمية وغطرسة ، ومن ذلة وانحطاط وبله يختلط بعضها ببعض فينشأ منها ما يكاد يكون عفنا تنفر النفوس من تأمله ٠ ومع ذلك فان الحياة تمضى فى سبيلها كأن هذا من بعض طبعها ٠ أليس هذا التيار القوى يشبه النهر القديم الذى كان يقف فى صباه الى جانبه فيرى عليه العود الضئيل يندفع الى قدره المحتوم قسرا ؟

وكانت الحرب الكبرى التى اظلت العالم من قبل اعواما ما تزال تنشر على الارض شؤمها وعنفها وقسوتها ، وانطلقت فى ميادين القتال كل الوحشية التى تنطوى فى ذلك القلب العجيب الانسانى الذى يجمع بين الاضداد ٠

واشتغلت الافكار كلها بما قد يكون بين صباح ومساء او بين مساء وصباح ٠ كانت الجيوش المنتصرة تطوى ارض الامم الهزيمة ثم تحتفل بنصرها على اشلاء الضحايا ٠ وعندئذ تعلو اصوات المنتصرين باتهام الذين غلبوا على امرهم ثم يحكمون عليهم بما تقضى به عدالتهم وما تلك العدالة الا ان الحق للقوة كان العالم كله يضطرب كأنه فى بحر هائج فى ليلة عاصفة موج من فوقه موج من فوقه سحاب ظلمات بعضها فوق بعض

وكان اقليم البحيرة الذى نقل اليه فؤاد يضطرب فى فزع من الحوادث الدامية التى تمزقه ٠ فما كان يمر يوم بغير سرقة باكراه او تقليع مزروعات او قتل شنيع او تصادم بين أهل القرى ، كأن جو العالم المتفانى قد أسرى عدواه الى كل النفوس ٠ فكان فؤاد يدعى الى التحقيق فى الصباح وفى المساء وفى وسط الليل او قبيل الفجر حتى لم تدع له الاعمال متنفسا ولا مراحا ٠ ومع ذلك فقد كان على عادته لا يرضى بأن يمر بتلك الكوارث متخففا ما استطاع من عنائها بل كان يزيد نفسه عناء بالتغلغل فى حناياها ٠ فكان أحيانا يقف مشدودا بين عاملين احدهما يجذبه والاخر يدفعه ، يرى واجبه يقضى عليه أن يطالب بالعقوبة وقلبه يكاد يحمله على الدفاع والرحمة ٠ فاذا اشتد النزاع بينهما اغمض عينيه لكى يحمل عقله الحائر قسرا على اداء واجبه ٠ فاذا ما كبح خلجات نفسه ، وأطاع الواجب الذى جعله امانة فى عنقه ، ارتد يجادل قلبه حتى يبلغ منه العذاب ما يكاد يحمله على هجر منصبه ٠ وكان احيانا يلجأ الى من هم اكبر منه سنا وقدرا لعله يجد عندهم ما عجز عن الاجتهاد فيه ، فاذا هو حيال قوم يسخرون من ضعفه ٠ فكان يحس قيوده ، ولا يقدر على الانفكاك منها ، ويتلفت حوله فلا يرى دونه من يأسى له ٠

وكثيرا ما تمنى لو اسرع الحظ الى نجدته فأصبح قاضيا ، فان خطب القضاء أهون عليه ، اذ يستطيع ان يمزج فى حكمه بين العدل والرحمة · واما رجل النيابة فان واجبه يحتم عليه أن يرفع سيف القانون مصلتا · ويالها من كلمة اذ كان يقولها! لقد كان فى كثير من المواقف يود لو قدم الى القضاء الفتى الطاغية الذى سلب ماله بدلا من اللص المسكين الذى سرق ذلك المال ·

وكان كثيرا ما يهرب من عذاب نفسه بأن يعود بالخيال الى ذكريات النجيلة وأيامها الوديعة التى كان يقضيها هناك ، والى الكوم الاحمر والى الحقول الشعثاء ، والى الجسور السمراء ذات الجوانب العالية المضطربة ، والى شجرتى الجميز فوق الساقية والى جوانب الترع تظللها اشجار الحور والاكوام التى تتهدل فوقها اعواد الطرفاء ·

وهفت نفسه الى قضاء يوم هناك تنزيها لقلبه المكدود ، فلا شك أن قوية وزوجته تعويضة كانا ما يزالان فى خيمتهما ينعمان بحياتهما الساذجة بعيدين عن قسوة الحياة· وهناك بغير شك رحومة المرح يستمع اليه وهو يتحدث عن اخبار عالمه ·

واشترى بعض الهدايا ، وركب سيارة حملته نحو القرية ، فما هى الاساعة قصيرة حتى كان عند بقية الكوم القديم ·

وكان الاقليم قد تغير فلم يبق من الكوم الا طلل من طلل ، فقد هده الفلاحون بما اخذوا من ترابه ، فلم يتركوا منه الا جانبا يحيط به من اطرافه اطار محمر اللون · أهذه الحرب قد اصابت الكوم فيما اصابت ؟ ولم تكن البركة الخضراء هناك بما عليها من أوز عائم ، وما حولها من دجاج تنبش الاكوام باحثة عن طعام · وتلفت حوله فيما بعد وما قرب فلم يجد أثرا ينم عن قوية ·

وصعد فوق بقية الكوم وسار بين حفره يلتقط منه قطعا من الفخار والاحجار المحطمة يتأملها كما كان يفعل قديما لعله يجد بها بعض ما كان قوية يطرب له ، ويبعث الاغانى الى قلبه ، فلم يجد من ذلك شيئا · ومع ذلك فانه قضى هناك

ساعة فى جولة كأنه يواسى الكوم القديم فيما أصابه ٠
وبدا الكوم تحته كأنه كان قصرا او معبدا ثم اندك ٠
ثم نزل يسير متباطئا نحو السهل الاخضر اليانع فى الطرف الاخر من الكوم يسائل نفسه كيف يهتدى الى قوية ٠ وماكان اعظم الفرق بين تلك الحقول الخضراء وبين البرية التى كان يجول فيها من قبل ٠ كان النبات تحت عينيه زاهيا يانعا ، وكانت الجسور ممهدة ، والترع والمصارف مطمئنة لا كما عهدها وحشية مضطربة ٠ اكان كل ذلك التبدل فى الاعوام القليلة التى غاب عن الارض فيها ؟
ولكنه احس شعورا شديدا من الخيبة ، فان اطمئنان المنظر سلب ما كان فيه من روعة ٠ وبلغ اسفل الكوم مطرقا واجما ، فلما رفع رأسه رأى رجلا يسعى نحوه ، وصاح يستقبله :
ـ عرفتك يا سيدى من مشيتك ٠
وأقبل قوية عليه باسما يمد يده مصافحا ، ثم قال :
ـ ومن غيرك يأتى الى هنا ثم يصعد الى الكوم قصدا ؟ منذ رأيتك حدثتنى نفسى انه أنت ٠
وغمره بتحياته المكررة وسار به نحو خيمته ، وكان قد نقلها الى أقصى الكوم عند أعلى بقية فيه ٠
فلما بلغها نادى :
ـ هاتى الحمل والفروة يا تعويضة !
وخرجت تعويضة تسعى واضعة طرحتها على جانب من وجهها ٠ فلمارأت (فؤاد) وقفت امامه فى دهشة ، ثم صاحت :
ـ مرحبا يا حاج فؤاد !
وبسطت الحمل وجعلت الفروة فوقها فى سرعة ، ثم مدت يدها من تحت الطرحة واهوت على يد فؤاد تريد ان تقبلها ٠
وسحب فؤاد يده وعيناه تدمعان من السرور وقال لها :
ـ كيف أحوالك ياتعويضة ؟ لشدما كنت اليكم مشوقا ٠
فقالت ووجهها يفيض بشرا :
ـ هذا يوم أبيض يا سيدى ! شرفت دارنا ٠
ونظر فؤاد اليها فملأ عينيه منها ، وكانت كما عرفها

بعينيها السوداوين وشعرها الاسود الحريرى ، وقوامهـــا اللدن الرشيق وحزامها الاحمر وحلقتها الفضية فى طـــرف أنفها ووشمها الذى يزين ما بين شفتها وذقنها · كانت هى تعويضة لم يتغير منها شيء سوى انها تقول له : «شرفت دارنا»
وسأل فؤاد قائلا :
ـ وأين عم رحومة ؟
ولكن نظرة تعويضة كانت لا تحتاج الى رد ·
وتمتم قوية قائلا :
ـ البركة فيك يا سيدى ·
فنطق فؤاد بكلمتى عزاء ، ثم مضى قوية يتحدث بأخباره
وكان يوما من اسعد الايام التى مرت على فؤاد · كان مثل النهار الشامس فى شتاء دمنهور · فكم تحدث قوية فى القريب والبعيد ، وكم تفكه كما كان يتفكه · واستأذن ساعة قصيرة ، فقام فؤاد يسير وحده بين الحقول ،وكان القمح يموج مع النسيم ، والفول الاخضر يخلع على الارض بهجة من نواره ويملأ الجو بعطره الخفيف · ولحق به قوية بعد حين فسار الى جنبه يحدثه ·
وسأله فؤاد باسما أن يعيد عليه بعض أغانيه القديمة فلم يتردد وأعادها مهتزا بنبرات متهدجة ، يغنيها بكل كيانه · ورنت فى الفضاء كأنما هى اصداء الاناشيد العذرية التى كانت ترن فى نجد عند بيوت آل لبنى وليلى ·
ولما حان وقت الغداء مدت تعويضة على الارض سـفرة ، وجاءت بطعام عجب فؤاد ان يتهيأ مثله عندها · وذكره الثريد والرقاق المبسوس بمبروكة رحمها الله ، فقال وهو يتهيـــأ للطعام :
ـ ما هذا كله يا قوية ؟ انها وليمة عظيمة ·
فأغضى الرجل كأنه خجل من كلمته ، وخيل الى فؤاد أن حمرة علت وجهه · فذكره ذلك بيوم بعيد يوم ذبح له قوية حملا منذ سنين ، اذ سأله الافندى : « أنى لك هذا يا قوية ؟ » فأطرق فى شيء من الخجل وعلت وجهه الحمرة ·
وخشى فؤاد ان تكون كلمته قد آذته فأخذ يطرى الطعام ·
فقال قوية منشرحا :

ـ لقد تعلمت تعويضة الطبخ على أمى ٠
ولان صوته رحمة لذكرى الام العزيزة ٠
ثم قال لتعويضة باسما :
ـ أينبغى لسيدى فؤاد أن يلتقم الثريد مثلنا بيده ؟
فأسرعت تعويضة ضاحكة وأتت بملعقة وسكين من معدن لامع ، ثم عادت الى بيتها تنتظر أمر زوجها ٠
وتمنى فؤاد لو أتت تعويضة فشاركتهما غداءهما وحديثهما ولكنه لم يجرؤ على الجهر بأمنيته ٠
وكان طعاما شهيا امتلأ منه فؤاد امتلاء ، فلما فرغا من الاكل حملت تعويضة اليهما وعاء الشاى وصفت لهماكأسين من الزجاج ، ووقعت عينها فى عين فؤاد فتبسمت له وجذبت طرف طرحتها على وجهها ٠
فقال فؤاد لها :
ـ ألم يرزقك الله بعد طفلا ؟
فخجلت وقالت وهى منصرفة :
ـ سنسميه (فؤاد) أذا كان ولدا ٠
وداخله سرور عظيم عند ذلك ، وقال قوية :
ـ وعلى نذر للحسين رضى الله عنه ان كان ولدا ٠
وعاد فؤاد فى عصر ذلك اليوم الى دمنهور وهو يحس فى نفسه دبيب نشاط لم يحس مثله منذ سنين ٠ وكانت صور شتى من تعويضة تلوح امام عينيه عندما استقر فى منزله ٠ فتمثلها فى طرحتها وهى تمد اليه يدها لتقبل يده ، ثم وهى تبتسم له فى خفر وتسرع عنه وهى تقذف بجوابها « سنسميه (فؤاد) اذا كان ولدا » ٠ ثم وهى تودعه قائلة : « لا تنس أن تزورنا » ٠
ولقد سمع مثل هذه الكلمة يوما من علية المنعمة فهـزته دعوتها وأثارت فى نفسه أملا ، ولكن تعويضة أثارت بكلمتها فى نفسه شكرا ٠ وسأل نفسه متعجبا ما ذلك الذى يضمره فى قلبه لتعويضة ؟ وعجز عن اكتناه قلبه العجيب ، اذ كان يتسع لمثل هذه المودة ، وتجتمع فيه صورتان غريبتان ما أبعد أحداهما عن الاخرى : علية وتعويضة ٠

- ١٠ -



عادت الاحداث تشغل هم فؤاد مرة اخرى ، فلم يفـــرغ لاحاديث نفسه أياما يتلو بعضها بعضا ، يقضى نهارهاوقطعا من لياليها فى تنقل لتحقيق امر جريمة او فى قراءة محضر جريمة اخرى ، او اعداد خطاب يلقيه يوم المحاكمة ويبعث به الى السجن نزيلا جديدا . وكان يخيل اليه أحيانا انه فى جبهة قتال بين فئتين ، ما تزال احداهما تتربص الدوائر بالاخرى . أهؤلاء هم قومه ؟

وكان يقتطع من وقته قطعا يختلسها فيقرأ فيها صفحات من كتاب ، فما يكاد يمضى فى قراءته حتى يئز جرس المسرة فيدعوه فجأة الى رحلة سوداء فى صدر ليل او فى بكرة صباح، فيثب فى شىء يكاد يكون ذعرا لكى يستعد لخوض المحنة التى يقضى عليه واجبه ان يخوضها .

وكثيرا ما كان يسأل نفسه ما هذا المجتمع الذى يعيش فيه هو وغيره من البشر كأنهم قوم واحد يظلهم وطن واحد . ماهذا الوطن وما سر ذلك الحب الذى يضم عليه جوانحه للبـــلاد العزيزة التى اضمر لها اعمق الحب منذ أدرك وعقل . اذلك حب صحيح أم هو وهم من اثر التلقين والايحاء ؟ أهو يحب هذا الوطن حقا أم هو يخادع نفسه بغير وعى ؟ وما هو ذلك

الوطن الذى يحبه ذلك الحب العميق القوى ، ويفنى فى خدمته ويفديه اذا دعا داعى الفداء بكل ما يملك ، نفسه وما دونها ؟

ولكنه كان كلما أطال التأمل والتغلغل فى أطواء ضميره بدا له انه يحب ذلك الوطن حبا لا يعدله حب الوالد اوالقريب والحميم ٠وكان كلما تمثل حال هذا الوطن ، وما يقاسيه من آلام ، وما يطمح اليه من آمال فى الحرية والكمال احس فى نفسه حرارة لم يحس مثلها فى حركة من حركات الحب او الرحمة ٠ أيكون كل هذا خداعا وايحاء من اثر التلقين ؟ اذن لقد كذبت كل طبائع الشعور ٠ ولكن ذلك الحب الذى يضمره لوطنه لم يكن سوى حب غامض شائع غير محدود فلمن كان ذلك الحب الشديد ؟

أهو لهؤلاء الذين يجاورونه فى الدار ، او يجالسونه فى المنتدى او يعاملونه فى مهنة الحياة ؟

أم هو لهؤلاء الذين يذهب اليهم بين حين واخر محققا متهما يبعث البعض منهم الى السجن او يحشر البعض الاخر الى محكمة الجنايات ؟ أم هو يحب هذه الارض وحدها بما فيها من حسن فى منظر الزرع ولطف فى الهواء ، وجلال فى لألاء النجوم فى الليالى الظلماء ؟ ولكن أكان يستطيع ان يحب ارضا اخرى فيها من الجمال ما هو ابدع واروع من جمال مصر ؟ وخيل اليه ان هذه البلاد لو كانت صحراء جاهمة او مناقع بلاقع لما كان لها عنده الا ذلك الحب القوى العميق ٠

أم هو يحب هذا الخلق الذى يجاوره ويعامله من امثال علية وسعيد ، او تعويضة او قوية ورحومة وامثالهم ممن رأى فى الحياة ؟ ولكن ألم يكن الى جانب كل هؤلاء قوم اخرون ممن ينكرهم وينكرونه ويسخط عليهم ويسخطون عليه ؟ الم يكن فى جيرانه او اهله او هؤلاء الذين يراهم قومه من يخالفونه فى الرأى والمشرب والذوق والعقيدة ؟ أليس يرى كل يوم فيما حوله ما يملأ قلبه بالغضب والحنق أحيانا ؟ افلا يكون ذلك الحب الذى يحسه لبلاده نوعا من الانانية يبعثه على ان يطلب فى المشاع ما يريد ان يتمتع به هو من حرية وكمال

ومجد ؟ لقد كان كلما رأى عيبا فى قومه اسف وحزن وود لو استطاع ان يصلحه ، وكلما تأمل خيرا ودلو استطاع هذا الوطن ان يدركه ويجمعه اليه . اما يكون ذلك الحب نوعا اخر من الغرائز لم يتعمقه بعد العلماء ، غريزة كامنة فى الفرد يحس بها انه قطعة من كل كما انه يحس ان ساعده قطعة منه ؟

كان فؤاد يفكر فى كل هذا وهو سائر احيانا ، ثم وهو مضطجع احيانا يستريح من اثر الجهد ، او وهو يقرأ فى كتابه فيسرح بين سطوره لا يكاد يرده من سرحته الا ازيز المسرة اذ تدعوه الى مفاجأة طارئة .

وكان فى سرحة من هذه السرحات فى بكرة الصباح عندما رن الجرس فهب فى شىء من الذعر يستمع الى الصوت الذى دعاه ، وكان صوت رئيسه يأمره بأن يذهب مسرعا للتحقيق فى جريمة جديدة ، سرقة فى الليل ، صاحبها نقب فىجدران عزبة ابراهيم ميسور . فأحس فى جسده شيئا يشبه القشعريرة ثم اسرع يرتدى ملابسه .

وجاء اليه ضابط البوليس وكاتب النيابة فركبوا سيارة انطلقت بهم حتى بلغوا النجيلة وهم جميعا صامتون .

ونزل فؤاد يسير الى العزبة القديمة التى طالما عرفها ووطأ بقدميه كل اركانها ، ولكن اى تبدل طرأ عليها ؟ نزل بالدار العزيزة التى صارت اشبه شىء بقصر من قصور الاقطاع ، فخيل اليه انها تنكره وتنظر اليه شزرا . ودخل الى البهو الذى طالما رأى فيه والده مشرقا بطلعته فلم يجد سوى ابراهيم ميسور .

وكانت الجريمة عجيبة يحيط بها غموض واضطراب .فقد نقب جدار العزبة ، وشرع اللصوص يسحبون الماشيةولكنهم لم يسرقوا سوى عجل واحد صغير ، وتركوا وراءهم كثيرامن الاثار ولكنها كانت عجيبة ، تكاد تثير الشك فى حقيقتها . وكانت واضحة فوق الجرن والجسر وعلى الطريق ، ولكنها انقطعت بعد ذلك عند طرف الكوم .

وبدأ رجال الضبط فى التحقيق ولكنهم لم يستطيعوا الاهتداء الى شيء ينم على اللصوص اذ كانوا مهرة دهاة ٠ كانت اثار اقدامهم واضحة ، ولكنها كانت ذات نعال عجيبة لا يشبه الايمن منها الايسر ، وكانت مقلوبة فمؤخرها عند اصابع الاقدام ، ومقدمها عند العقبين ٠ هكذا دبر اللصوص امرهم فى دهاء وحرص ليضللوا المحقق والمقتفى ٠ فلما اطلع فؤاد على تلك الاثار عجب من عمقها فى الارض وانتظام رسمها ، كأن اللصوص كانوا فى غير حاجة الى العجلة ٠

واحس احساسا غامضا بان ظاهر هذا الحادث غير باطنه، واشتدت رغبته فى استجلاء ذلك الغموض وكان فى قرارة نفسه يشعر بشيء من سوء الظن بصاحب العزبة الذى عرفه وسمع عنه ٠

واخذ يسمع اقوال الشهود واحدا بعد واحد محترسا فى اثباتها حتى لا يضيع حرف منها ٠

ودعى احد الحراس ليصف ما رآه ، فقال كأنه يعيد قصة محفوظة :

ـ تعودت عند حراستى ان اكون قريبا من حظيرة المواشى، لانها معرضة للسرقة من ناحية الحقول والكوم ٠ ولكنى كنت فى تلك الليلة محموما فاستأذنت السيد فى الاعتكاف ٠ ولكنى سمعت صياح اهل القرية فقمت متلفعا بغطائى ولم تكن بندقيتى معى ٠ ولو عرفت ان هناك لصوصا لما تركتها ورائى ولوضعت رصاصة فى احشاء ذلك اللص الذى لمحته من بعيد يجرى ٠ ولكنى عرفته من هيئته ، عرفته وهو يتجه نحو الكوم ٠

وسكت لحظة لينظر أثر قوله فى وجه المحقق ٠

فأطرق فؤاد متعجبا يكاد يضحك من طريقة الرجل فى وصفه وقال غير ناظر اليه :

ـ أكمل شهادتك ٠

فقال أنه قد فرغ منها ، مع أنه لم يذكر اسم ذلك اللص الذى لمحه ٠ فسأله فؤاد : ألست تقول انك لمحت اللص ؟

فأجاب الرجل : بلا شك .
فصاح فؤاد : ولم لا تذكر اسمه ؟
فقال فى شىء من الارتباك :
ـ انك لم تسألنى عن اسمه .
فتمالك فؤاد نفسه وسأله :
ـ أتقول أنك رأيته ؟
فأجاب مؤكدا : بغير شك .
فقال فؤاد وهو يحاول أن يمسك نفسه : وهل كانت الليلة مقمرة ؟
فأجاب الرجل : لا . ولكنى حارس تعودت ان أبصر فى أحلك الظلام .
فنظر فؤاد اليه نظرة طويلة وهو يجاهد ألا يظهر ما فى نفسه من الشكوك ، فأغضى الرجل فى ارتباك ثم حول وجهه عنه كأنه يبحث عن نجدة قريبة .
فأخرج فؤاد من جيبه منديلا مسح به عرقه .
وقال هادئا : أكمل شهادتك .
فتلفت الرجل حوله مرة أخرى فى شىء من الفزع ثم قال :
ـ ومع ذلك فقد رأى الخولى ذلك العجل عند قوية .
فغص فؤاد بريقه وهو يقول فى شبه صيحة :
ـ قوية !
فقال الرجل محملقا فى وقاحة :
ـ نعم قوية .
وتصبب جبين فؤاد عرقا ، وكان يوما دافئا من أيام الربيع ، فأخرج منديله يمسح به وجهه وقال متلفتا حوله :
ـ افتحوا هذه النافذة . وأين الخولى ؟
وجاء الخولى بعد حين فقال فؤاد مبادرا :
ـ قص على ما رأيت .
فتكلم الرجل غير متعثر كأنها قطعة أخرى يحفظها . كان يمر اتفاقا عند طرف الكوم فى طريقه الى العزبة ، فرأى عند قوية عجلا جديدا لم يره عنده من قبل . وهز رأسه عند ذلك متهكما

ثم قال :
ـ وليس من العجيب أن نجد عنده عجلاجديدا ، فتأملتهفاذا هـــو العجـل الذى سرق من العـــزبة • ولكنى خشيت أن أتعرض لقوية أو أسأله عن شيء خوفا من بطشه •

وحملق فى وجه فؤاد حينا بنظرة كالحة ، ثم اطرق •وكان وقع هذه الشهادة على فؤاد شديدا ، فقام يسير فى البهو ، وأحس الدم يصعد الى وجهه • ايقول الرجل انه خشى بطش قوية ؟ أقد تغير الفتى فى هذه السنين القلائل كل هذا التغير؟ أم أن الامر كله ينطوى على مؤامرة خبيثة ؟

وكان الرجل الشاهد يختلس نظرات الى وجه فؤاد كأنه يتأهب لاول بادرة منه • ولم يكن فؤاد ليعبأ به ، وهو وكيل نيابة يحلق فوق نظرات امثاله ، ولكنه احس لتلك النظرات الخبيثة وقعا كأنهما عينا أفعى تبرقان نحوه • ودب الى قلبه شيء يشبه الرعب ، خشية ان يكون ذلك الرجل قد رآه يوم زيارته لقوية ، او سمع بتلك الزيارة ، او يكون غيره قدلمحه عندهفأخبره • وماذا يكون موقفه منه اذا هوقال لهفى وقاحة : « لقد كنت منذ ايام تنزل ضيفا على قوية » ؟

والا فما باله يختلس اليه تلك النظرات الجريئة الوقحة التى لم يعتد احد من امثاله ان يوجهها اليه ؟

وعادت الفاظ الرجل ترن فى سمعه قاسية كأنه كانيوجه التهمة اليه قصدا • وكاد يضحك ساخرا من نفسه كيف تنزل الى مستوى مثل هذا الخلق ، ولكنه مع ذلك اندفع فى غير وعي يحاول ان يجد لنفسه مهربا • فسأل نفسه الا يكون قوية الوديع قد انقلب الى فطرته التى ساقت أخاه الىالسجن قبله ؟ فما باله يبدأ تحقيقه بمثل هذا التحفز فى نصرة فتى لا يعرف من امره الا الظاهر ، وقد فرقت بينهما سنون عدة؟ لقد احس فى يوم من الايام نوعا من الرضى عن نفســه اذ حسب أنه ساعد ذلك الفتى على أن يستعيد امله فى الحياة الشريفة ، واحس سعادة صادقة عندما رآه فى خيمته منــذ أيام ينظر الى الناس والحياة عاطفا سعيدا •ولكن اينبغى لمثله

ان يغتر بمثل هذه المظاهر الخادعة ؟ واخذته هذه الخواطر على غرة حتى اذهلته ، وجعلته يصرف كل همه الى النظر فى امر نفسه وفى موقفه وفيما يخشى ان يقول هذا الشاهد وامثاله عنه . وخيل اليه انه قد بدأ التحقيق بما لاينبغى للامين على القانون ان يبدأ به تحقيقه . وكان يخالط كل وساوسه الثائرة ندم شديد على انه اطاع نفسه فى زيارة هذا الفتى الذى فارقه من سنين ولا يعرف ماذا طرأ عليه . أغره حديثه وهو يعرف ان الاحاديث هى مطية الاكاذيب والخداع؟ ألم ير أسفل الناس فى النذالة وهم أعلى الناس اصواتا بالشرف وبالكرامة ؟ فكيف لم يحترس فى خطوته ولم يفكر فى عاقبة تبذله ؟

ثم زاد به الحنق فتصور ان ذلك الفتى وجه اهانة الى كرامته اذ خدعه بمظهره ودعاه الى زيارته فى تلك الجرأة ، كأنه لا يريد سوى ان يرضى غروره ليذيع اهل الريف المجاور انه اهل لزيارة مثله فيكبر فى اعينهم ويزداد صرامة فى جرائمه .

ثم تذكر ما قاله أبوه منذ سنين اذ قال له :

« ان هؤلاء يجمعون فى قلوبهم الاضداد من الكرم والقسوة ومن الانسانية والنذالة »

وصار كل همه ان ينظر الى نفسه فيلتمس لها من هذا الحرج مخلصا ، واطرق حينا يفكر فيما عساه يفعل فى هذا الموقف المنكر ، فلم يجد الى الخلاص سبيلا الا ان يعدل عن المضى فى التحقيق وينفض منه يده نفضا .

وكان كل من حوله يحسبون انه يفكر فى حل لغز او رسم خطة لتعقب الجناة ، على حين كانت الارض تدور به اذ خيل اليه انه مقبل على فضيحة جرتها عليه دفعته الحمقاء ، فلسوف يسخر منه اخوانه ويضحكون من سخافته وبلاهته ، ولسوف ينظر اليه الرؤساء شزرا متى علموا انه دعا نفسه الى وليمة عند رجل بدوى حقير فى قطعة منعزلة من الريف . ومن يدرى ماذا يكون من امر هؤلاء جميعا ؟ ولسوف يرى

بعضهم تعويضة بغير شك ولن يخفى عن اعينهم حسنها الوحشى العنيف ، وما أجدر ذلك الحسن أن يبعثهم الى الظنون • وخرج من الدار وليس يدرى أين يسير ،فاستجمع قوته وحملته قدماه الى السيارة ، ولم يسأله احد ممن حوله عن مقصده ، فما كان احد ليسأل وكيل النيابة عن نواياه• وامر السائق ان يحمله وحده الى طرف الكوم البعيد على نحو كيلو مترين من العزبة • فلما بلغه اتجه مسرعا نحو خيمة قوية المنكود •

وسمع قوية صوت السيارة فخرج مسرعا ، فما كاد يراه حتى أقبل نحوه باسما • فصاح فؤاد يناديه فى غلظة ، وكان صوته بشعا • فزالت الابتسامة عن وجه قوية ونظر نحوه متعجبا مترددا مرتبكا • ومد يده فى فتور ليصافحه وهو واجم من منظره ، فجذبه فؤاد الى ناحية الكوم وقال له فى صيحة مكتومة :

ـ اصدقني أيها الرجل •

فنظر قوية اليه فى دهشة وقال :

ـ كفى الله الشر يا سيدى فؤاد • مالى أراك غاضبا ؟

فقال فؤاد فى جفاء :

ـ ما ذلك العجل الذى سرقته ؟

فرفع قوية رأسه فى تحد وقال غاضبا :

ـ العجل الذى سرقته ؟

فصاح به ثانيا : نعم • ولا تحاول ان تخدعنى •

فملك قوية نفسه وقال عاتبا :

ـ اننى لا افهم قصدك ، ولا ادرى سر هذا اللقاء الغاضب•

وكاد فؤاد يتزلزل من رنين الصدق فى صوته ، ولكنه لم يلبث ان عاد الى غضبه مضاعفا ، فقد خيل اليه ان الفتى يحاوره ويريد ان يتخلص من سؤاله •

فقال له فى جد صارم :

ـ اسمع يا قوية • اننى عندما زرتك منذ ايام لم اكن معك سوى فؤاد الذى عرفته ، وما كنت عندى سوى قوية الذى

وثقت فيه . فلم تكن تعرف اننى وكيل نيابة دمنهور ، ولم أكن اعرف اننى سأعود اليوم للتحقيق فى جريمة سرقة تكون انت المجرم فيها .

وكان صوته فى غضبه اجش كريها حتى انكرته اذناه .

وكان قوية يسمع قوله مذهولا ، وارتج عليـــه فلم يجب بلفظ ، بل تحرك قلقا وتمتم قائلا :

ـ « لا حول ولا قوة الا بالله » .

فصاح فؤاد به :

ـ مالك لا تنطق ؟

فرفع قوية رأسه فى بطء . وقال :

ـ ماذا أقول لك يا سيدى ؟ اننى لم أكن أهلا للسعادة التى وهبتها لك بزيارتك فلم تمض الا أيام حتى طلع على النهار بهذا الشقاء الفادح . اتقول اننى سارق ؟

فقال فؤاد فى حنق :

ـ دع هذه الاقوال التى لا تجدى شيئا واجبنى عما سألتك أولا . ايدفعك حرصك على الزهو الى أن تدعونى لتملأ فمك فخرا بأننى زرتك ، ثم تتستر بى فى جرائمك ؟ أألومك أم ألوم نفسى ؟

وبدت لمعة الغضب تبرق فى عينى الفتى عندما رفع رأسه قائلا :

ـ ان الموت أهون على مما تقول يا سيدى . لم أطلب زيارتك لتشرفنى ، ولكنى أمتعت بزيارتك قلبى . وما كان يعنينى أنك وكيل النيابة ، فلم أعبأ الا بانك سيدى الذى عرفتـــه قديما .

لم أسألك عن عملك وما كان يهمنى ان اعرف شيئا عنك سوى انك سيدى فؤاد . ولكن ما ذلك العجل الذى تذكره ؟

فصاح فؤاد صيحة مكتومة اخرى قائلا :

ـ العجل الذى سرقته .

فصاح قوية مجيبا وكانت تلك أول مرة سمعه فؤاد يصيح فى وجهه :

ـ لا تعد هذه الكلمة على سمعى · فلولا انك سيدى فؤاد لرددتك عن نفسى · لست مجرما ·

فنظر فؤاد اليه متعجبا وقال فى ضحكة مرة :

ـ نعم تردنى عن نفسك ، فلست فى شك من جرأتك ·

وأدار عنه وجهه لينصرف ·

فاقترب الفتى منه وامسك بذراعه قائلا :

ـ اسمع يا سيدى فؤاد · ولست أسميك الا بالاسم الذى أعرفك به · لست مهتما بشىء من كل هذا الا أن تذهب عنى وأنت تحسب أنى ـ كما زعمت ـ مجرم ·

فضحك فؤاد ضحكة سخرية وقال :

ـ كما زعمت ؟

فقال قوية ناظرا اليه فى ثبات : أأحضر اليك تعويضة لكى تسألها عنى ؟

فاندفع فؤاد قائلا فى حنق : وما شأن تعويضة فى هذا ؟

فقال فى صوت جريح : أتصدقنى اذا أقسمت لك ؟

فقال فؤاد فى عنف :

ـ وبم تقسم لى ؟

فأجاب الفتى وفى صوته رنة المتألم :

ـ انك تنكر فى لحظة من عرفته فى سنين · ولكن ما علينا ! سأحلف بتربة أبيك ، ولا شك انك تحس فى قرارة قلبك أننى صادق · أقسم بتربة أبيك لم أسرق · وأقسم كذلك بتربة أمى التى كانت تحبك وكنت تحبها · أقسم برحمة أمى أننى لم أسرق ·

فنظر فؤاد اليه فى حيرة ووقع فى نفسه أنه صادق ·

واستمر الفتى يقول :

ـ وجدت بالامس فى المساء هتا عجلا وراء خيمتى مقيدا ، وحسبت أن بعض الجيران قد تركه فى جوارى حتى يعود اليه ، فكثيرا ما يفعل جيرانى مثل هذا اطمئنانا الى حراستى · فضممته الى ماشيتى واطعمته من علفى ، وانا واثق من ان صاحبه سوف يعود الى ليسترده منى · فكنت أنت أول من

جاء بحديثه الى فى مثل هذه الغضبة التى أخرست لسانى •
ثم أشار بيده اشارة بأس •
فأحس فؤاد كأن الارض تهبط تحت قدميه ، واستند الى كتف الفتى ، فأسرع يسنده وذهب به الى العربة حتى اجلسه فيها ، ونسى ما كان فيه وأقبل عليه يعنى به فى لهفة •
فقال فؤاد وهو يمد اليه يده مصافحا :
ـ أنا آسف يا قوية على ما بدا منى • ولكنى لا استطيع أن أفهم من هذا الامر شيئا • فأنا أصدقك ولكنى لا أستطيع الا أن أمضى عنك والله يتولاك •
فأطرق الفتى حينا ، وجعل ينكت الارض بعصا فى يده ثم رفع رأسه قائلا :
ـ اذا صدق ظنى ياسيدى فهى مكيدة خبيثة قد دبرت لى• أليست السرقة فى عزبة ميسور ؟
فقال فؤاد كالحالم : مكيدة ؟
فقال قوية فى هدوء : أتحب أن تسمع ما تقوله تعويضة ؟
ففتح فؤاد عينيه كأنما تلك أول مرة يسمع فيها اسمها •
اذن فهى القصة القديمة !
وعادت به الذاكرة الى أحاديث قوية اذ قص عليه أخبارهيوم التقيا بالقاهرة • وأطرق صامتا فاستمر قوية يقول :
ـ عاد الخبيث منذ اسابيع فبعث الى يستعيدنى الى ارضه• وكان أحيانا يمر بخيمتى فيتودد الى تعويضة ، ولكنها كانت ترده ولا تفضى الى بأمره خوف أنيزيد الامربينى وبينه سوءا• ثم رأيته يوما فى عودتى الى البيت مساء وخيل الى انه كان منصرفا من خيمتى • فاتقد قلبى لهبا وعنفت على تعويضة حتى خيل الى انالامر سوف يؤدى الىالقطيعة بيننا •فأخبرتنى بما كان منه ، فلم أتريث حتى تتعلق بى وتمنعنى من الذهاب الى ذلك الرجل •
وكان بينى وبينه فى تلك الليلة حديث صريح هددته فيه وهددنى ، ثم انصرفت عازما على ان اثنيه عنى وان أدى الامر الى ان أفتك به فتكا •

ولكنه خشع بعد ذلك فلم يعد الى شيء اكرهه ، بل لقدبعث الى منذ ايام رسولا من قبله يعرض على ان اعود الى عزبته ، وانه يحب ان يكرمنى . فرددت رسوله عنى ردا قبيحا .

وأكبر ظنى انه دبر لى هذا الحادث ليتهمنى تهمة تمهد له سبيل الانتقام منى كما فعل بأخى من قبلى . هكذا يفعل هذا السيد لانه لم يقو على الوقوف وجها لوجه امامى . ولكن الله من ورائى ولن يخذلنى . وأما أنت يا سيدى فقد اقسمت لك يمينا صادقة ، فاذا شئت فصدقنى واذا شئت فكذبنى . وأما ميسور فلست أعبأ بما يدبره لى .

فصافحه فؤاد حزينا وعصر يده كأنه يعتذر اليه عما بدر منه ، ولكنه ذهب عنه وفى نيته أن ينفض يده من هـذه القضية المنكرة . وانطلقت السيارة الى العزبة وامر اصحابه بالعودة الى دمنهور ، فلما بلغ المدينة كان اول همه ان يرى رئيس النيابة ليطلعه على ما كان منه . وأفضى اليه بكل امره لم يخف منه شيئا ، فوافقه الرئيس على ان واجبه ان يتنحى عن التحقيق فى تلك القضية تجنبا للشبهات .

وتعمد فؤاد بعد ذلك ان يتباعد عن كل ما يتصل بقضية قوية ، تاركا صديقه لرحمة الاقدار . وقضى اسابيع طويلة ممزقا فى خواطره ، يلوم نفسه حينا ، ويعذرها حينا وهو فى كل ذلك يخشى أن يضيع الفتى ضحية المكر الخبيث ؟

ولكن الشواغل شغلته بعد ذلك عن ان يفكر فى أمر قوية الا بين حين وحين ، فكانت صورة الفتى تتمثل له احيانا كأنها تؤاخذه ، وكانت صورة تعويضة تبدو له كأنها تعاتبه ،فكان يدفع صورتيهما فى شيء من الفزع ويبعد التفكير فيهما بهزة عنيفة .

- ١١ -



كان فؤاد يكتب الى صديقه سعيد بين كل اسبوع واسبوع، يجد الى ذلك باعثا من كتاب قرأه او حادث شهده او قضية حققها او منظر رآه ، وكانت ردود صاحبه قليلة ولكنها اذا أتت اليه ملأت فراغ وقته حتى يعيد اليه الكتابة مرة اخرى٠ وكان سعيد فى كل كتاب يبعث به اليه يثير مسألة تحرك فيه فكرة أو أفكارا ، فكأن تلك المكاتبة قد اصبحت سلسلة تفصل بعضها عن بعض فترات من زمن ، وهى اذا اجتمعت كانت حديثا موصولا ٠

وجاء احد هذه الكتب الى فؤاد فى مطلع الربيع ينبئه صاحبه فى حاشيته انه قد اعتزم العودة الى الاسكندرية ٠لقد ضاق أهله بالريف وما فيه من ظلمة فى الليل وركود فى النهار ، اذا شاء الذى يعيش فيه ان يشرب ماء كان عليه ان يحمله ويصفيه ، واذا اراد شراء دواء كان لابد له من سفر طويل لكى يشتريه ٠ وأما الحياة فيه فلا يقدر عليها الا من عزم على أن يقطع ما بينه وبين الحياة ٠

وكان عجب فؤاد شديدا من ذلك النبأ ، وان امتزج عنده العجب بالسرور ٠ كانت الاسكندرية اشق على الناس مقاما من سائر المدائن ، فان المعركة الطاحنة كانت ما تزال تدور

فى شمال أفريقيا ، وكانت الغارات تتـــوالى على شواطىء الاسكندرية ، فلم يفكر اهلها بعد فى العودة اليها · ولكن مهما يكن من خطر تلك الغارات فقد كان فى استطاعة فؤادأن يذهب الى ذلك الشاطىء كل اسبوع فيمتع نفســـه بحـديث صديقه حينا وبرؤية علية التى لم يرها منذ شهور طويلة ·

على أنه بعث الى صديقه يسأله هل يؤثر الاقامة فىالقاهرة، فانها كانت أقل تعرضا للاخطار ، وما ينبغى له ولأهله ان يدفعهم التبرم بالريف الى مثل هذه المخاطرة · ولكن رد سعيد كان قاطعا حاسما ، فان علية قـــد بلغت من السآمة مالا يستطيع شىء أن يزيله عنها الا شواطىء الاسكندرية ·

اذن فهى علية التىكانت أشدهم ضيقا بحياة الريف ، وهى التى كانت فى الاسكندرية تقضى اكثر فراغها فى خدمـــة المساكين والمشاركة فى جمعيات البر ·

وتبسم فى شىء من السخرية ، ولكنها كانت ســـخرية هادئة ليس فيها ســوى وخزة من الدعابة ·

وكتب الى سعيد ينبئه بأنه سوف يزورهم بالاسكندرية ، حتى يشاركهم بعض المشاركة فى التعرض لاخطـــار قنابل الاعداء · ومضت اسابيع بعد ذلك وفؤاد يتلهف الى سـماع نبأ انتقال الاسرة الصديقة الى الاسكندرية وتمثلت له مناظر تلك المدينة اكثر سحرا ، وهواؤها اعظم صفاء ، وصيفهـــا المقبل ابدع رواء رغم ما يحيط بها من المخاطر · فما يكـون أسعده اذا اختلس من أواخر الاسابيع خلسا يقضيها هنـاك فيفوز فيها بنزهات على رمال الشاطىء او جولات فيما يجاور المدينة من المنازه او الصحارى فى صحبة علية واخيها ·فما كاد سعيد يبعث اليه نبأ انتقال اسرته الى الاسكندرية حتى بادر اليه ليقضى معه ومع اسرته يوما بديعا · فسافر فىيوم من شهر يونيه ، وكان الشاطىء خاليا الا من قلائل منثورين على الرمال كأنهم بقية من عالم مندثر · وكان الســـكون عميقا فى ساعة الاصيل عندما ذهب ليلقى على الشاطىء اول نظرة بعد عودته اليه · الا ما كان اكبر الفرق بينه وبين مارآه

فى المرة السابقة بين الجموع التى كانت تسير على الطريق متزاحمة صاخبة مرحة ٠

كانت السماء على عهدها زرقاء صافية ، وكانت حدائق زيزينيا ولوران تضحك متبرجة فى الوان ازهارها ، وكانت اوراق الاشجار واغصانها تهتز يانعة عميقة الخضرة بعد أن غسلت الامطار عنها غبارها فى الشتاء والربيع ، وكان هواء البحر ما زال يفوح برائحة العشب ، تلك الرائحة التى كانت تحمل اليه ابعد الذكريات التى حجبها الماضى وراءغلالة من الضباب ٠ ونزل اخر الامر الى شاطىء سيدى بشر فرأى الرمال على عهدها صفراء لامعة تحت اشعة الاصيل ، وكانت مياه البحر تتهادى نحو البر فى رفق تحت هبات النسيم الرقيق ، ولكن العالم السحرى لم يكن هناك ٠ لم يذهب فكر فؤاد فى ذلك السكون الصامت الا الى صورة علية التى لم تكن على الشاطىء الخالى ، وجعل ينظر الى المقاصير الخشبية وهى انيقة خالية كأنها حسناء ، منبوذة ، وسار يقلب عينيه على جوانب الشاطىء لا يدرى عمن يبحث فيها ٠

وكان موعده مع صاحبه مساء في البيت على العشاء ليحتفلوا بأول التقاء بعد تلك الغيبة ، فجلس حينا على مقصف الشاطىء يشرب فنجانا من الشاى ، ومد بصره الى الافق لالكى يتأمل سحابه الذى كان يخطر فى ذيوله الزاهية ، بل ليتمثل كيف يلقاها وكيف يحدثها اذا حان وقت لقياها ، وجعل يدبر فى نفسه عبارات الاعجاب بالصور التى لا شك ان مناظر الريف حملتها على تصويرها ، فلئن كانت لم تستطع الامتزاج بأهل القرى وانتهاز فرصة اقامتها بينهم لتفيض عليهم من رحمة قلبها ، فان ذلك عبء لا يقوى عليه مثلها ٠ ولكن الريف فى حقوله وشمسه ، وفى قراه واكواخه ، وفى مراعى برسيمه واجران قمحه ، يعرض على أهل الفن عالما واسعا ليجولوا بفنهم فيه ٠

وذهب فى المساء الى البيت على ربوته فى محطة السراى ، فدق جرسه وانتظر فى لهفة مدة ثوان حتى فتح الخادم النوبى

الباب . ودخل الى البهو الفسيح وكانت الاضواء تأتلق فى أركانه ومن فوقه ، وهب سعيد من بين الجلوس مرحبا فى حماسة ، وفتح لصاحبه ذراعيه . ودخل فؤاد ينظر حوله فرأى علية فى ركن تنظر اليه باسمة ، ثم مدت يدها نحـــوه فى بشاشة فسلمت وقالت :

ـ زمن طويل يا فؤاد !

فقال باسما : ثم أشرقت الانوار فجأة !

وسلم على الام والاب ثم انحنى اذ قدمه صاحبه الى ضيف لم يره قبل ذلك اليوم ، صدقى بك .

وكان صدقى فتى أنيقا ممتلىء الجسم تلوح النعمة فى وجهه وهيئته وملبسه . وعرف فؤاد من حديثه انه ابن عمه سعيد قد ذهب الى أوربا ليدرس الاقتصاد فى فرنسا حتى اوشك ان يبلغ غايته ، ثم قامت الحرب فعاد مسرعا قبل ان يمتد لهيبها ، اذ عرف انها حرب مدمرة سوف تقف حركة العالم كله مدة سنين وقال صدقى انه يقيم فى الاسكندرية لم يبرحها منذ عاد من فرنسا ، ولم يرض ان يهرب من الاخطار كما يهـرب خفاف القلوب . وكان ما يزال ينتظر انتهاء الحـرب وفتح طريق البحر حتى يعود لاتمام دراسته فى فرنسا ، فما كان مثله ليلجأ الى احدى كليات جامعتى مصر .

ورآه فؤاد من أول نظرة جميل الصورة رشيق العود ولكنه على شىء من الزهو يشبه ان يكون دلالا ، فذهب ليتخذ مجلسه الى جنب سعيد فى الركن الاخر الذى يقابل علية وصدقى .

واحس فؤاد شيئا يشبه ان يكون خيبة وحنقا . فلم يلبث ان ضاق بذلك المجلس وود لو استطاع ان يفر منه هاربا . وكان سعيد يناجيه فى حماسة ويصف له ما شهده هـــو وأهله فى حياة الريف ، وما كانوا يسمعونه كل يوم من انباء خيالية عن الحرب يذيعها اهل القرى كأنها هبطت اليهم من السماء . وود فؤاد لو كان حديث المجلس مشتركا ليسمع ما تقول علية ، ولكنها كانت منصرفة الى صدقى تحدثه فلا تأتى من احاديثها الى اذنه الا كلمات بين حين وحين فى طى

ضحكة مرحة فيها ذكر بعض الاسماء • لقد كانا يتحدثان عمن رأيا من الناس وهما ينظران اليهم من ركنهما وحدهما •
وزاد الانقباض فى قلب فؤاد ، فكان يمانع نفسه قسرا من توجيه نظراته الحانقة الى ذلك الفتى الجديد الذى طلع عليه فجأة ليسلبه حقه فى حديث علية • وآذن وقت العشاء فاجتمعت الحلقة على المائدة وقامت علية تخدم فى محل امها • وكان حديث المائدة مهذبا مرحا وزعته علية فى براعة كأن ذلك فن من فنونها • واتجهت فى اثناء ذلك الى فؤاد ببعض لفتات أزالت عنه بعض قبضته الاولى ، فلما فرغ من الطعام كاد يلوم نفسه على سوء ظنه وما ساوره من الضيق والحنق • وسأله سعيد ايحب ان يلقى نظرة على مرسمه ، فوثب مرحبا ونظر الى علية كأنه يسألها أليست تلك فرصة لاستعادة ما سلف من الاحاديث • فقالت ضاحكة :
ـ لا تطعه يا فؤاد فانه سوف يصدع رأسك بالاحاديث عن صور ريفه •
فكانت صدمة اخرى شديدة أصابته • أنها تتحدث عن مناظر الريف بمثل هذه الزراية ولا تريد ان تذهب الى المرسم معه ومع اخيها وتؤثر البقاء حيث هى فى البهو مع هذا الشاب لتسأنف الحديث وضحكات السخرية معه عن أصحابه وصواحبها •
وخرج مع سعيد كئيبا الى الحديقة ودخلا الى المرسم وقد زاد باللوحات ازدحاما وفوضى • كانت لوحات جديدة تزاحم اللوحات التى وقع بصره من قبل عليها ، وهى خليط من مناظر بعضها رؤوس اشخاص وبعضها صور حيوان اومناظر أكواخ فى الحقول • وقد مزج سعيد ألوانها فى براعته المعتادة وكانت كل لوحة تتحدث حديثا ناطقا : انه سلام واطمئنان! وكانت صورة الزنجى المتسول ما تزال قائمة فى الصدر ولكن لوحات اخرى قامت دونها تحجبها • واما صورة علية فقد انزوت فى ركنها من البهو فى جوار صورة الزنجى حتى كان من العسير على فؤاد أن يبصرها الا اذا اندس بين الصور

التى تحجبها • وأى تغير اعترى تلك الصورة عندما دخل في الفرجات بين اللوحات واستطاع ان يبصرها ! لقد زالت نظرتها التى لمح فيها الهدوء والسلام من قبل • ورآها وهى تمسك بطرف ثوبها هابطة الى الصخرة التى على شط البحر جريئة لا تبالى أن تقتحم الموج الثائر بثوبها الابيض ونعليها الرقيقتين ، ولم ير أثرا لتلك النظرة الخاشعة التى جعلته يشبهها بالراهبة المطمئنة ، فلم يكن لها من الراهبة الا ثيابها البيض • فأين ذهب ما رآه من قبل عندما وقعت عينه عليها أول مرة ؟ اتبدلت الصورة كما يتبدل الناس ام كانت الصورة تبدو له كما يصوره له وهمه ؟ ومع هذا فانه قضى ساعة مع صاحبه فى حديث متصل ليس فيه فتور ، وكان سعيد كما عرفه فؤاد منذ صغره موطأ الاكناف ألوفا عطوفا • واقبل سعيد فى أثناء الحديث على لوحاته يرتبها ويعدل من اوضاعها، فاستأذنه فؤاد ان ينزل الى الحديقة فيسير فيها وحده حينا • ونزل من المرسم وهو يحس كأن الفضاء الذى حوله يتقد حرا • ورأى علية عند ذلك خارجة من البهو فانحرف عنها كأنه لم يرها ، واتجه الى ركن بعيد من الحديقة ، ولكنه سمع قدميها وهى تهبط على الدرج وتسير فوق الحصى المفروش فى المماشى متجهة نحوه • وكانت الليلة قمراء والحديقة تبدو فى غلالة من النور الرفيق • كانت الاغصان الباسقة تنطبع على صفحة السماء حالمة هادئة صامتة ، وكانت الخمائل المزدهرة منثورة بين الاشجار كأنها اطفال تلوذ بأمهاتها فى ليلة عرس ، ومن تحتها بساط ممتد من العشب الاخضر تتلألأ عليه قطرات من الماء تبرق كلما سطع عليها الضوء • وسمع صوت علية من خلفه تناديه مرحة :

ـ أنت هنا ؟

فالتفت اليها بقلب واجف وقال :

ـ انها ليلة ساحرة •

فقالت ضاحكة :

ـ وما ينبغى أن تقضيها فى المرسم الضيق • وأين سعيد ؟

فقال فؤاد باسما :
ـ مع لوحاته يصففها ويمسح الغبار عنها ·
فقالت علية :
ـ حولا يملها ، ولا يرى جمال الكون الا من خلالها ·
تعال يا فؤاد لاطلعك على لوحاتى أنا ·
فقال فؤاد :
ـ لم أرها فى زحمة المرسم ··
فقالت ضاحكة :
ـ لم أضعها فى ذلك المرسم الضيق ، فهى هنا ·
وأشارت بيدها اشارة شاملة الى الحديقة ·
ثم قالت :
ـ قد اتجهت الى هذه الحديقة بعد عودتنا معتذرة لها عن هجرتنا ، فانقطعت لها أخدمها وأسقيها وأنسق أحواضها وأركانها · هذه لوحتى !
فقال فؤاد وقد عاد اليه بشره :
ـ انها لوحة حية !
فأخذت ذراعه وسارت به نحو عريش فى ركن الحديقة ، وأحس لمس يدها فكأن عصا ساحر غمرته سعادة ·
وقالت علية فى حماسة :
ـ أترى هذا المجلس الهادىء ؟
وكان العريش قائما فى زاوية تلاصق البناء وتتكىء على جانبيه أعواد متسلقة ذات زهر فيها الاصفر الداكن وفيها الابيض الناصع ، ومن تحته مقاعد على قوائم من قطع غليظة من جذوع الشجر قد رصت فوقها أعواد من أغصان دقيقة · وكان بين المقاعد قطع أخرى من جذوع كأنها مناضد ، ومن فوقها أصص من أزهار شتى ·
واستمرت تقول ضاحكة :
ـ انك تحب الريف يا فؤاد وهذا مجلس لا شك يعجبك ·
وجلست على مقعد ونظرت اليه كأنها تدعوه الى الجلوس ·
وفاح فى الهواء عطر خفيف من أزهار العريش يمتزج بالعطر

الذى يفوح من علية ، فكان لذلك شذى عجيب لا يشبه فى‌شىء ما عرف فؤاد من أنواع العطور ! أرج خفيف ولكنه قوى‌شديد أحسه ينفذ الى أعماقه ٠

وجلس الى جانبها يقول :

ــ ما أبدعها من لوحة !

فقالت علية مرحة :

ــ لقد عرفت أن هذا المجلس يعجبك ٠

فأجاب مغتبطا :

ــ انها قطعة من فن يلهم بالسلام يا علية ٠

ورنت كلماتها فى قلبه اذ قالت : « لقد عرفت أن ذلك المجلس يعجبك » أكانت تذكره وهى ترسم هذا العريش ؟!

ونظر اليها حائرا يحس أن الاقوال تزدحم فى خاطره ولا تنطلق على لسانه ٠ أهذه علية التى كانت منصرفة عنه منذساعة وتقبل بحديثها على ذلك الفتى الاخر تناجيه وتبتسم له ؟أليس اقبالها عليه كأنه اعتذار اليه وتكذيب لظنونه ووساوسه ؟فما الذى يمنعه من أن يأخذ بيدها بين كفيه فيرفعها الى شفتيه يقبلها ثم يتدفق لها بما فى نفسه فيكشف لها عن الحب الذى يجيش فى قلبه قويا صادقا صافيا ؟ أيمضى فى صمته فلا يكشف لها عن حقيقته ويدع ذلك الفتى الوسيم المعجب بنفسه يتودد اليها ويغلبه على فؤادها ؟ ولكنه لم ينطق ، وكلما هم بأن يقول كلمة تعثر بها خاطره قبل أن يفوه بها فترتد الكلمات كليلة الى صمتها ٠ ومضى حين عليهما فى صمت ثقيل فقالت علية :

ــ تعال يا فؤاد فانظر الى الحديقة من ذلك الركن الآخر ٠

ورآها تهم قائمة وأحس لمس ثوبها الحريرى ، وفاح فى‌شمه عطرها العجيب ، فقام صامتا يتبعها ، حتى وقفت عند الركن المقابل وأشارت بيدها نحو البدر المطل من بين أغصان مجموعة ملتفة من الشجر ، ولمعت أناملها الملونة وهى تشير كأنما هى

زنبقة بديعة وقالت :
ـ سأتخذ هنا مجلسا آخر يستقبل البدر اذا طلع هكذا ٠
فقال فؤاد :
ـ ان الاحلام تحيط بكل المكان يا علية !
وهم أن يصيح قائلا : تعالى نعد الى مجلسنا الاول فنتحدث فيه قليلا ٠ ومضت عليه لحظات طويلة وهو يدير الاحاديث فى ضميره ، ولكنه كان كلما حاول النطق لم يستطع اليه سبيلا ٠ كانت الكلمات المتدفقة تقف عند لسانه كأنها ترتد عند سد ٠
وقالت علية :
ـ ألا توافقنى على اختيارى ؟
فأجاب :
ـ كل الموافقة يا علية ٠
فقالت فى حماسة !
ـ اذن فهذه الحديقة مرسمى ٠
ثم نظرت نحو مرسم أخيها ، ونظرت الى الساعة التى فوق معصمها وقالت فى شبه صيحة :
ـ سوف يقضى سعيد كل ليلة مع لوحاته لا يبالى أحدا ٠
ثم صاحت تنادى أخاها ٠
فقال فؤاد لا فائدة فى ندائه اذا لم نذهب اليه ونجره من مرسمه جرا ٠
فصاحت تناديه مرة أخرى فلما لم تسمع جوابا قالت :
ـ دعه يا فؤاد فلا أظن أنه يعبأ بأحد منا ٠
ثم أسرعت نحو سلم الدار فقفزت على الدرج صاعدة وصعد فؤاد وراءها فاترا ٠ ودخلت الى البهو فقالت فى مرحها :
ـ لا مؤاخذة يا صدقى ، لقد تأخرنا ٠ كنت أعرض علــى فؤاد حديقتى ٠
وعادت القبضة الى صدر فؤادعندما سمعها تعتذر الىصدقى لانها ابطأت عليه فى تلك اللحظات القصيرة التى قضتها معه فى الحديقة !

والتفت صدقى نحوها باسما وقال فى هدوء :
ـ لم أشعر بمرور الوقت فاني كنت أحدث عمتى ٠
وكان جالسا الى جنب أم علية يدخن سيجارا ٠ ووقف فؤاد عند مدخل البهو حينا ، وهجم عليه الضيق فجأة حتى أحس أنه أشقى من فوق الارض ، وخيل اليه أن كل ما فى البهو ينظر نحوه شزرا ٠ وسارت علية متجهة الى مقعد ونظرت الى فؤاد كأنها تدعوه ليجلس الى جانبها ٠
ونظر صدقى اليه باسما ٠
فقال فؤاد وهو يحاول اخفاء ارتباكه :
ـ كنت أود لو استطعت أن أقضى الغد معكم ، ولكنى مضطر أن أكون فى دمنهور غدا ٠
فصاحت علية :
ـ مستحيل !
وذهبت نحوه فأمسكت بذراعه ٠
فقال فؤاد فى بسمة ضئيلة :
ـ أشكرك ٠ ولكنى مضطر يا علية ٠ لابد أن أكون فى دمنهور صباحا ٠
وحيا آخر الامر منصرفا ٠فذهبت علية معه الى المرسم،وكان سعيد ما زال هناك فى قميصه ،عاكفا على صوره يرتبها ويزيل أثر الغبار عنها ٠
فصاحت به علية :
ـ ما هذا ؟
فالتفت سعيد باسما وقال لفؤاد :
ـ لعل الحديقة أعجبتك ٠
فقالت علية :
ـ انه يريد السفر الليلة ٠
فنظر اليه سعيد قائلا فى هدوء :
ـ أيمكن هذا ؟
ثم رفع يده فنظر الى الساعة التى فوق رسغه وقال فى

دهشة :
ـ لقد مضى الوقت سريعا ولكن أليس الغد يوم الجمعة ؟
فقال فؤاد :
ـ أنا مضطر الى السفر ٠
فقال سعيد يخاطب علية :
ـ ألم تخبريه عن رحلتنا غدا ؟
فقالت باسمة :
ـ لم اعلم انه يسافر الليلة ٠ وكنت احب ان اجعلهامفاجآة٠
فأحس فؤاد كأن سهما طعن قلبه ٠ فأية رحلة تلك التى يكون معهم فيها ، ثم يرى علية تتأبط صاحبها وتناجيه ، ولا يكون نصيبه الا ان تلقى اليهاحيانا فضلة من فضلاتالتفاتها؟
وأجاب فى اصرار :
ـ آسف اذ أنى مضطر الى السفر الليلة ٠
ونظر سعيد الى وجهه الجاهم فقال له ٠
ـ أأنت متعب ؟
فهز فؤاد رأسه فى شك وقال :
ـ قد أكون متعبا ٠ ولكنى مضطر الى السفر يا سعيد ٠
ومد يده الى علية ليحييها قبل ذهابه فنظرت اليهآسفة، ولكنه حول عنها عينه متكلفا ان يبتسم وهو يحييها ٠
وقالت له : لن نحسب هذه الزيارة يا فؤاد ٠
فتمتم مجيبا بكلمة لميكد يتبين لفظها ،وهبط يسير نحو الباب مسرعا ، وذهب معه سعيد يشيعه الى المحطة فى عربته٠ وأحس كأن عبئا أزيح عن صدره عندما وجد نفسه فى عربة القطار وحيدا ، وأسلم نفسه لخواطره الحانقة ٠
وبلغ بيته اخر الامر فقضى سائر ليلته ساهدا حتى طلع الصباح ، وذهب الى عمله فاتر الجسم ، ولكن قلبه كانثائرا يريد ان تجتمع عنده كل الهموم السوداء لعل انشغاله بها يصرفه عن الاحاديث الحانقة التى كانت تضطرب فيه ٠
وعزم على أن يقطع ما بينه وبين الاسكندرية فلا يزورها حتى لا تقع عينه علىصدقى مرة اخرى ٠ومضت ايامالاسبوعونفسه

موزعة بين الحنق حينا والكآبة حينا ، حتى جاء يوم الخميس فسأل نفسه الا يزور الشاطىء مرة اخرى ؟ وحاول ان يصرف عنه هذا الخاطر مرارا ولكنه وجد نفسه اخر الامر يركب اول قطار فى صباح الجمعة الى الاسكندرية . ولم يتردد فى ان يذهب الى دار سعيد ويدعو نفسه الى الغداء مع الاسرة . وكان سعيد فى مكتبه ، فدخل عليه متكلفا ان يبدو مرحا غير متكلف ، فما وقعت عين سعيد عليه حتى صاح به قائلا :

ـ لقد احسست انك آت للغداء معنا اليوم .

فقال فؤاد : هو قلبك المؤمن دائما ياسعيد .

وجلسا يتحدثان على عادتهما .

ودخلت علية باسمة فقالت :

ـ مرحبا بك يافؤاد . لقد لمحتك من النافذة داخلا .

فخفق قلب فؤاد وهجم عليه شعور قوى من السعادة وقال لها :

ـ يخيل الى أننا افترقنا أجيالا طويلة .

فقالت علية ضاحكة : لقد كانت اقامتنا فى الريف بلاشك اجيالا طويلة .

فقال سعيد : لست أدرى اذن كيف نعيش الى اليوم .

فقالت علية ـ لست افهمك يا استاذى .

فأجاب سعيد ـ أبلغ قولى من العمق ان يصعب عليك فهمه؟ هذه تحية لا استحقها . ولكنى لست ادرى كيف تكون الشهور اجيالا .

فقالت علية ناظرة الى فؤاد : لو رأيت ما رأيناه فى الريف لعددت كل دقيقة بسنة .

فضحك سعيد وقال : أما أنا فانى لم احس شيئا من هذا . كنت استيقظ فى الصباح فأتنفس من الهواء ، وافتح عينى على منظر الطبيعة الباسمة ، واستغرق احيانا فى تأملى خلال الليل المظلم الذى تتلألأ فيه النجوم ، واستمتع احيانا بجمال الليالى القمراء الوديعة . هذا كل ما وجدت فى الريف ولم ينقصنى فيه الا رؤية هذا .

وأشار الى فؤاد .

فقالت علية : ولم تحس ألما من لذع بعوض الليل ، ولا ضيقا من وحشة حياة النهار ؟!

فعادت القبضة الى قلب فؤاد كأشد ما كانت تعـــذبه فى الاسبوع الذى مر به ٠فلقد قصد بكلمته التى قالها ان فراق علية فى هذه الشهور كان فى نفسه يشبه فراق اجيال طويلة، ولكنها لم تشعر بتحيته واخذت تتحدث عن ضيقها بحيـــاة الريف وما فيها من مشقة ٠

وقال سعيد : لم احس فى الريف وحشة فى الحياة ولا الماء ان الوحشة فى قلوبنا نحن اذا كنا نتطلع الى اكثر مما تهب لنا الطبيعة ٠هناك فى الاحياء من يحسون الشقاء الشديد لانهم لا يستطيعون الوصول الى كأس مرة من الخمر ، او لا يصدعون رؤوسهم بضجيج المجامع اللاهية الهازلة ٠ أليس كذلك ؟!

ونظر الى فؤاد كأنه يستنجد به ٠

ولكن قلب فؤاد خانه ، فلم يرد الا بهزة من رأسه موافقا٠

وقالت علية ناظرة الى فؤاد :

ـ تصور عزلتنا هناك عن كل ما فيه حركة الحياة ، حتى لقد كنا لا نستطيع الوصول الى صحيفة ولا الى كتاب ٠

فقال فؤاد فاترا :

ـ ولكنك بغير شك تجدين هناك ميدانا عظيما لقلبك الكبير

فقال سعيد : هكذا قلت لها مرارا ٠ ان هؤلاء المساكين الذين يعيشون فى الريف فى اشد الحاجة الى أن يعيش بينهم امثالها

فقال فؤاد فى هدوء :

ـ بلا شك ٠ ولو وجدنا الوسيلة الى الاقامة بينهم ولو بين حين وحين لردوا الينا الصنيع مضاعفا ٠ لقد عشت بين هؤلاء اعواما واستطيع ان ادرك مقدار المتعة التى يمكن ان نجدها فى الحياة بينهم ٠

وعادت الى ذهنه صورة قوية المسكين وتعويضة امرأته ، وسأل فى سره ألا كيف حالهما ، وماذا آل اليه امر قوية ؟

وسمع صوت علية تقول عند ذلك :

ـ لا لا ٠ لقد فضلنا ان نخاطر بحياتنا هنا على ان نبقى بين

تلك الحقول الخضراء بما فيها من متاعب .
وقامت عند ذلك مسرعة فنظرت من النافذة وصاحت تنادى في حماسة :
ـ صدقى ! تعال !
وسارت تفتح له الباب قائلة :
ـ سأجد على الاقل واحدا يشاركنى فى رأيى .
وغاص قلب فؤاد كأنه يهوى فى فراغ عميق . ثم دخل صدقى بقامته المديدة ووجهه الجميل ، وسمع صوته القوى يقول :
ـ صباح الخير ياعلية . ماذا أتى بك الى هنا ؟
فقالت : فؤاد هنا .
فصاح صدقى : الحمد لله على السلامة .
ثم دخل وحيا فى طلاقة ، وقام فؤاد يستقبله وهو يعانى المشقة فى ازالة ما على وجهه من الوجوم .
وقالت له علية وهو يجلس : مبروك بذلتك الجديدة ! ان لونها بديع ولون رباط الرقبة يناسبها .
وجلس صدقى الى جانب علية مقابلا لفؤاد وسعيد . وقال باسما : اشكرك على تحيتك .
ثم قال لها :
ـ الحمد لله اذ لم تحدث اغارات على الاسكندرية منذ جئتم اليها . كان قدومكم اليها سعيدا .
فقالت فى حماسة :
ـ هذا من حسن حظى . فلو حدثت اغارة فى هذا الاسبوع لما تخلصت من لوم الجميع . ألا توافقنى يا صدقى على ان حياة الريف لا تطاق ؟
فقال صدقى باسما :
ـ بالتأكيد وأظن ان سعيد يغالط نفسه .
واتجه الى فؤاد قائلا :
ـ ألا توافق على أن الحياة هناك لا تطاق ؟
فقال فؤاد فى فتور : هى بغير شك شديدة على من لم يتعودها

فقالت علية : والناس هناك . لقد سألت نفسى مرارا أهؤلاء هم مواطنونا .
فقال فؤاد فى حزن : انه سؤال كان يخطر لى هناك فى كل صباح ومساء .
فقالت علية : اذن فأنت توافقنى ؟
فقال فؤاد : بغير شك . وأرى اننا مطالبون بان نؤدى نحوهم واجبنا .
فقالت علية ضاحكة : ولكن من بعيد .
وأضاف صدقى ضاحكا : نعم من بعيد . لا حاجة بنـــا الى ان نضم انفسنا الى البائسين لكى نواسيهم .
فنظر فؤاد الى علية صامتا ثم أطرق مفكرا . وتذكر قوية وتعويضة وقال فى نفسه :
« هل فعلت أنا أكثر من هذا حتى أوجه اللوم الى علية ؟ » .
وتنبه من تفكيره على صوتها اذ قالت :
ـ لست أخشى أن أقول فى صراحة ان واجبنا لا يزيد على ان نرحم هؤلاء المساكين ونمد اليهم ايدينا لنخفف عنهم بؤسهم، ولكن ليس معنى هذا ان نشاطرهم الشقاء . الا ترضون الا بان نكون كذلك من الاشقياء ؟
ونظرت الى صدقى قائلة :
ـ ألا توافقنى ؟
فقال صدقى فى حماسة : طبعا .
وقال سعيد ضاحكا : طبعا !
ثم نظر الى فؤاد قائلا :
ـ لابد من وجود الاحزاب . هكذا الحياة الديمقراطية .
فقالت علية ضاحكة : لن تخيفنى بسخريتك . أتستطيع أن تبين لنا ماذا فعلت أنت لهؤلاء ؟
فسكت سعيد لحظة ،وعلق فؤاد أنفاسه ليستمع الى جوابه .
وسأل نفسه هذا السؤال عينه ، ماذا فعل هو لأولئك الذين يكثر عنهم الاحاديث ؟ ألم يمد اليهم يده من بعيد حتى اذا ما خشى ان تصيبه معرة أو سخرية قبضها عنهم والتمس لنفسه النجاة ؟
وقال سعيد فى صوته الهادىء :

ـ لا استطيع ان أكابر فى الحقائق ياعـزيزتى · اننى لم أصنع لهم اكثر من ان ارسم بعض صورهم على لوحاتى ·
فضحكت علية منتصرة وقالت :
ـ أتكفى هذه الصور البارعة فى مساعدة هؤلاء الاصدقاء ؟ قدمها لهم اذا شئت لعلهم يجدون فيها عزاء على ماهم فيه من شقاء ·
ونظرت الى فؤاد باسمة فى صمت ·
وخيل اليه أنها تهم بأن تسأله عما فعله هو كذلك لاصدقائه المساكين ، ودب اليه شعور بالنجاة عندما قامت تنظـــر من النافذة قائلة :
ـ اننا نضيع وقتنا هباء فى مثل هذه المناقشة · وقـــد طالت جلستنا بين الجدران فى مثل هذا الجو البديع · هلموا الى الحديقة ·
ولم تنتظـــر بل ســـارت الى الباب ، ووثب صـــدقى يسير وراءها ·
وقام سعيد قائلا لفؤاد :
ـ حقا ان الحديقة فى هذا الوقت ممتعة · ألم ترمجموعة الابصال التى زرعتها علية ؟
فقام فؤاد يجر قدميه وراءه الى الحديقة · ومر اليوم عليه بطيئا حتى عاد الى دمنهور فى قطار المساء ·
ولما عاد الى دمنهور فى تلك الليلة كانت الوحشة تخيل اليه كأنه وحيد منبوذ · فما قيمة كل هذه الحياة التى كلما تعلق فيها بأمل وجده ينهار فى يده ويهوى به الى الهوة المظلمة التى كان يحاول الخروج منها · وقد راجع نفسه من قبل مرة بعد أخرى وعللها بالامانى وخادعها بالحجج ، ولكن ما جدوى كل هذا والحق واضح أمام عينيه ان كان يريد ان يعرفه · ان علية تحب هذا الفتى الوسيم الرشيق الانيق · تحب صدقى الذى يعرف كيف يستميلها بلفظه المعسول وأدبه المزوق وبراعته فى الاحاديث ولا يتردد فى التودد اليها فى كل مناسبة ·
ولم يكن من العسير عليه اذا لم يشأ ان ينخدع منذ أول الامر أن يعرف هذه الحقيقة الواضحة · كان من الواضح أن كل شيء فى ذلك

الشاب يعجبها حتى لون بذلته وربطة رقبته • وأما آراؤه ـ وهل كان لصدقى آراء ؟ كانت تافهة ولكن علية كانت تقرها ، أو كان هو دائما على وفاق معها فى آرائها ، فما تكاد تنطق حتى حتى يتم لها قولها ، فاذا أتمه أعادت هى كل كلمة معجبة بكل حرف منها •

وامتلأ قلب فؤاد من شيء يشبه الحنق أو الحقد على ذلك الشاب الذى خيل اليه أن المقادير قذفت به بينه وبين علية لكى تحرمه منها • والا فما الذى عادبه من فرنسا ، وقد كان له بغير شك فى فتياتها غنى عن علية ؟ وما الذى أقام هذه الحرب فى ذلك العام فلم يتقدم به ولم يتأخر كأن القضاء قد أثار تلك الحرب عمدا ليعود ذلك الفتى الى مصر فى الوقت الذى عرف فيه علية ؟

وكان الحنق يحمله أحيانا على أن يدافع نفسه عن تلك الفتاة ويحاول أن يظهر كل ما يستطيع الحنق أن يصوره له من العيوب • وسأل نفسه أيستطيع أن يتخذها زوجة ؟

لقد تعود فى حياته بساطة الريف ، فهو لا يميل الى مفاتن المدينة وملاهيها ، ولا يرتاح الى مجامعها الصاخبة ولا الى أنوارها التى تكاد تعشى العيون • كان نور القمر الخافت احب اليه من اضواء المسارح الوهاجة ، وكانت انفاس الشاطىء أروح لصدره من جو الابهاء المزدحمة ، وكانت اغانى قروية الساذجة ورقصة تعويضة الوحشية ادعى الى مسرته من النغمات الناشزة التى تبعثها الموسيقى الصاخبة فى حلقات الرقص الماجنة •

ولكن علية تحب كل هذا الذى ينكره وتجد فيه متعتها • فهل كان يستطيع ان يتخذها زوجة مع كل هذا ؟

ولكن هذه المحاولة لم تجده نفعا ، فكان بعد ان يطيل تأمل مافى علية من عيوب يفيق الى نفسه على خفقة من قلبه اذا تمثل ذلك الشاب (صدقى) جالسا الى جانبها يحدثها ، وخيل اليه أن تأمله فى عيوبها قد زاده تعلقا بها • فكان لا يلبث ان يعود فيسأل نفسه لم لا تكون علية زوجة له فتخرجه من ذلك الظلام

الذى يخيم على قلبه ، وتخلق منه شخصا جديدا يطرب للحياة ويعيش فى زحمتها ويتذوق مباهجها ومفاتنها ؟ بل انه لاشد حاجة الى مثلها من ذلك الشاب المرح الذى اذا انصف التمس له زوجة تصلح له ما فيه من طراوة ، وتدخل الى قلبه وعقله شيئا من الجد • ومع هذا فقد كان كلما تمثل صورته داخله شعور العجز الذى يقعد بالقزم عن مصارعة العملاق • وهل كان يستطيع هو بقامته الضئيلة ولونه الاسمر وملامحه الحادة ونظرته التى تكاد تكسب وجهه مظهر العبوس الدائم الصارم ، أكان يستطيع بهذا ان يهزم الشاب الباسم المرح المتأنق الوسيم ؟! كان صدقى يكاد يشبه الغادة الحسناء لولا صوته العميق وجذور الشعر الخضراء التى تغطى عارضية • وماذا يضره من ضآلة افكاره التى تشبه افكار الصبية ، او تفاهة ثقافته ونظراته فى الحياة ؟ فمهما يكن من امره فان كل شيء فيه محبب عندها • فكل لفتة منه تسترعى التفاتها ، وكل لفظة ينطق بها تستقر فى اذنها ، وهى تعرف الوان كل قطعة من ملابسه ، وهيئة كل حركة من حركاته ، حتى لقد كانت عينها أول عين لمحته عندما اقترب من البيت •

كانت تستطيع ان تميز صوته من بين ضجيج الاصوات ، وتعرف دبيب سيره كأنها تراه •

وقضى ايام الاسبوع شقيا ينتظر مضى ساعاتها البطيئة حتى يأتى يوم الجمعة المقبل ليراها مرة اخرى ويراجع نفسه لعل ما بدا له منها كان من وساوس الخيال • ولكن الاسابيع كانت تمر، ويعود من الاسكندرية فى اعقابها كل مرة بخيبة تزيد قلبه مرارة على مرارة •

وجاءت اليه يوما رسالة من رئيس النيابة يأمره بأن يسرع الى التحقيق فى جريمة كبرى ، ذهب ضحيتها احد كبار اعيان الاقليم ابراهيم ميسور • فثارت نفسه فجأة تتذكر الماضى الذى كاد يغيب عنه فى ثنايا الضباب ، وعادت اليه ذكريات النجيلة ، والكوم ، وقوية وتعويضة • فماذا عسى آل اليه أمرهما ؟ وكيف انتهى قوية فى تهمته بعد ان تركه للاقدار

تصرفه كما تشاء فى تيارها ؟وسأل نفسه وهويسرع فى طريقه الى القرية اما كان لقوية يد فى تلك الجريمة ؟ ألا يكون قوية قد سجن ظلما فلما خرج من سجنه دبر للرجل فاغتاله انتقاما؟ وحاول ان يشغل فكره بما حوله والسيارة تطوى الارض طيا حتى بلغ العزبة ·

وطلع عليه منظر الدار العزيزة ولكنها كانت عابسة عالية ، ودخل الى روضتها الجافية ثم الى بهوها الجـاهم وجلس فى كآبة يستعد للتحقيق · وكان أول من سأل عنه من اهل القرية قوية بن سلام ·

فقال العمدة ـ هو فى المنفى ·

فقال فؤاد فى لهفة ، كأنه نجا من خطر : وكم مضىعليه فيه؟

فقال العمدة ـ منذ اسبوع ·

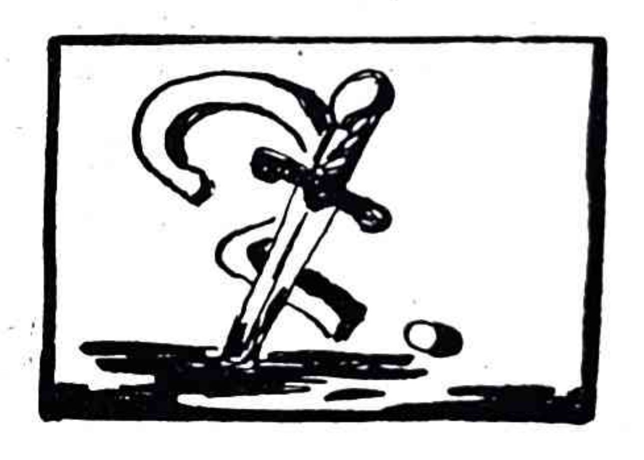
فقال فؤاد :

ـ أذلك بعد خروجه من السجن ؟

فقال العمدة فى خبث :

ـ لم يسجن اذ لم تثبت عليه التهمة · ولكن الحكومـــة لا تترك مثله فى هذه الايام السوداء ليفسد فى الارض ·ليس فى مثل هذه الايام فراغ لامثال قوية يا سيدى النائب ·

- ١٢ -



قوية فى المنفى ! قد يقرأ الناس هذا النبأ الصغير فى صحيفة أنباء او قد يسمعون ذلك الاسم عرضا فى جمع فلا يقف أحدهم ليسأل نفسه من يكون قوية ٠ انه لا يزيد عندهم على اسم يسمى به احد أولئك (الاشقياء) الذين ينفون من البلاد الى الاطراف البعيدة ليأمن الناس شرور اعتدائهم ، اذ هم يعيشون كما تعيش الذئاب تلتمس أرزاقها خطفا من حيث يتاح لها ان تخطف ، فاذا ما سدت عليها السبل او هيجتمن مكامنها المظلمة ثارت على الخلق جميعا تعقر من تلقى منهم فى سبيل النجاة ٠ ولكن قوية كان عند فؤاد انسانا له قلب يحس ويحب ويخلص ، وقد عرفه وعاشره وسبر دخيلته ، وشاركه فى قطعة من حياته كما يشارك بعض الناس بعضا ٠ وقد داخله فى امره الشك حينا يوم اتهم بالسرقة ثم سمع صوته وهو يقسم بتربة امه فزال شكه وعرف انه صادق برىء ، وانه ضحية مكر خبيث من رجل يلبس ثياب العظماء ، فيحتمى بها ويرتكب جرائمه فى سترها ٠ ولكنه مع ذلك تركه لقضائه فلم يحرك فى نصرته ساكنا لانه خشى ان يجره التدخل فى امره الى ان يكون موضع شبهة او أن يكون هدفا لسخرية ٠ فكان فى ذلك انسانا تستبد به الانانية كسائر الناس ، يؤثر ان

يتقي خدشا يصيبه غير مبال ان يصير صاحبه الى الهلاك
فكان قلبه دائم الثورة عليه وهو مقبل على التحقيق فى مقتل ابراهيم ميسور . ومادام قوية المسكين قد ذهب الى منفاه فمن ذا الذى قتل ذلك الرجل المخيف ؟ أكان لقوية أهل ينتقمون له من ورائه ؟ لم يكن له سوى اخيه سلومه وقد سبقه الى السجن المؤبد ، فهو يرسف هناك فى قيوده ، ولا يدرى احد اذا كان ما يزال حيا ام قد انحدرت عليه صخرة من الجبل فدكته دكا. أتكون تعويضة هى التى انتقمت لظلم صاحبها ؟ اتقوى امرأة مثلها على قتل رجل مثله يحيط به الحراس أينما سار ؟ لقد ضحك فؤاد ساخرا من نفسه عندما خطر له ذلك الخاطر . ومضت أسابيع فى التحقيق حتى بلغت منه الحيرة مبلغا اذ لم يجد حوله الا ظلاما دامسا ليس فيه شعاع من النور . وحدثته نفسه مرارا بالتخلى عن التحقيق لانه كان يحس فى قرارة نفسه مقتا لذلك القتيل الذى جاء يريد القبض على قاتله، ولكنه مع ذلك مضى فى تحقيقه اذ لم يجد عذرا يعتذر به عن ذلك التخلى .

وقد دل التحقيق على أن ابراهيم ميسور كان يقيم ليلة مقتله فى بيته وراء أسواره العالية ، وكان خدمه وأتباعه يحلون فى كل ركن من الاركان ، فلم يكن بالبيت موضع لمتربص ولا لمتدسس . ولكن هؤلاء جميعا قالوا أنهم لم يعلموا من أمر الجريمة شيئا ، حتى كاد فؤاد يذهب الى أنها مؤامرة مبيتة بين أتباعه أنفسهم .

ولكنه كان كلما ذهب مذهبا من الشك لم يلبث ان يرتد عنه خائبا ، فقد كان ميسور عماد هؤلاء جميعا وما كان احد منهم ليرجو أن ينال خيرا بزواله . كان مع قسوته وغلظته يظلهم جميعا بحمايته ويبسط لهم على الريف سلطانا ورهبة، ولم يكن له فى قلب من قلوبهم الا الاكبار والعرفان . على ان الحقائق لم تدع لتلك الشكوك مجالا ، فقد دخل السيد الى مخدعه بعد العشاء واغلق بابه عليه كما اعتاد كل مساء ، وكانت حجرته فى الصباح مغلقة ليس عليها اثر من اعتداء ، واماهو فقد وجد فى الصباح الباكر قتيلا فوق جسر الترعة ومفتاح الحجرة فى جيب ثوبه . وكان مطعونا فى صدره بخنجر لم

يوجد له اثر مع طول البحث ودقته . فلا شك فى انه قد خرج مختارا ، وانه اغلق بابه مطمئنا عن قصد ، ثم ذهب الى حيث قتل بغير ان يحس احد بخروجه . فما الذى بعثه على كل هذا ؟

وتدسس رجال الامن فى كل مكان لعلهم يجدون اثرا للقاتل فلم يستطيعوا شيئا ، كأنه قد سدد طعنته ثم ساخ فى الارض او طار فى السماء .

ووجدت حول الجثة آثار اقدام مختلطة باثار المواشى والاغنام فوق الطريق الترب ، ولكن لم يكن هناك ما ينم عن عنف او صراع او دفاع .

وقد جرت العادة فى مثل هذه الجريمة ان يسارع الاهـل والاتباع الى الاتهام والرجم بالغيب ، فيسوقون الظنون جزافا الى كل من تتعلق بهم شبهة من قريب او من بعيد . ولكن اهل القتيل واتباعه كانوا ذاهلين لا يهتدون الى رأى ، ولايزيدون على أن يهزوا رؤوسهم واجمين كلما وجه اليهم المحقق سؤالا . وامتنع أهل القرية كذلك عن الاتهام كأنهم كانوا جميعا شركاء فى مؤامرة لتغطية القاتل ، فهم يلوذون بالصمت فى عنـاد عجيب . وحاول فؤاد أن يستدرجهم للايماء الى وجهـة قد تفيده فى الاهتداء الى اول خيط من الحقيقـة ، فلم يستطع شيئا . وكان فى كل مذاهبه فى التحقيق يخشى ان تأتى من أحد اشارة الى اسم تعويضة ، وكان يحس ارتياحا عظيما كلما انقضت شهادة الشاهد بغير ان يورد ذكرها او يشير الى شىء يتصل بها . ولكنه لم يجد اخر الامر بدا من مواجهة واجبـه القاسى الذى يحتم عليه الا يدع وجهة بغير ان يتجه عليها . ومرت بخاطره صورة الاعرابية الحسناء التى طالمـا اعجب بحسنها وظرفها وذكائها ، وسأل نفسه أليس واجبه أن يحقق معها لعلها تكون هى القاتلة ؟

لقد كانت هى الجديرة بأن ترتكب مثل تلك الجريمة التى يحيط بها الغموض وتوحى حقائقها بوجود امرأة . ألم يكن فى تسلل ميسور من بيته وحده تحت ستار الظلام ما يوحى بأن فى الامر امرأة ؟

ولقد عرف فؤاد فيما سبق له علمه من أخبـــار قوية أن (ميسور) كان يضمر فى نفسه رغبة خبيثة نحو تعويضة . وما كان أحراها أن تدفعه عن نفسها بخنجرها ، فقـد كانت تغضب احيانا فكأنها قطة برية فى غضبتها .

ولكن أكان فؤاد ليقوى على أن يطلبها للتحقيق او يسوقها الى العقوبة لانها قتلت مثل ميسور ؟

وقضى ليلة مسهدة عندما وجد واجبه يحتم عليه أن ينحى عاطفته ويقسو على نفسه ويطلب تلك الفتاة لكى يستمع الى أقوالها . فتمثلت له بقامتها المعتدلة وتكوينها البديع وعينيها السوداوين وضفائرها السوداء الحريرية التى كانت تضطرب فوق صدرها ،وهى تخطر رشيقةفى حلقة السمر . وسمع صدى صوتها العذب يرن فى اذنه اذكانت تناديه ياحاج فؤاد وتبتسم له فى خفر ، متطلعة اليه كما تتطلع الى خلقة محبوبة من غير عالمها . عادت اليه صور تعويضة فى تلك الليلة مختلفـة فى مواضع شتى ، فكان قلبه الحزين يتوجع كلما تمثل الغد الذى سوف يدعوها فيه ليسألها ، وفى ظهر ضميره انها قد تكونهى القاتلة .

وماذا كان يستطيع ان يفعل لو وجدها المجرمة حقا ؟ ماذا كان يصنع بحياته اذا هو أمر بالقبض عليها واقام الدليلعلى جنايتها ، ثم قام ليترافع فى قضيتها طالبا من القضاء انيسفك دمها عقابا لها على قتل ميسور ؟ أما كان فى قرارة قلبهيرحمها لوكانت هىالقاتلة حقا؟ وود لو خلع عن نفسه صفة النيابة ، ولبس عباءة المحامى لكى يقوم مدافعا عنها ، لو ظهر أنهـــا قد اغمدت خنجرها فى قلب ذلك الرجل الشـنيع الذى كان بلا شك هو العامل على نفى قوية صاحبها . وسأل نفســه ما تلك العدالة التى تحتمل ان يتنازعها جانبان احدهما يمثل سلطة القانون فيطلب من القضاء ان يسطو بلا رحمة ويقطـع بلا هوادة ، والثانى يمثل العـدالة فيقف مدافعا عن الجريمة يملأ المحكمة بصوته الجهورى مطالبا بالبراءة مدافعا عنمرتكب الجريمة . حقا ان كل امور الانسان لا تتصل بالحق الا بمقدار ما يراه الانسان حقا ، وقد يكون الحق عند البعض باطلا عن

البعض الاخر ، وقد يكون الخير فى نظر قوم شرا فى نظر قوم اخرين . هذه تعويضة التى يخشى ان تكون هى القاتلة وهو نفسه ينظر نحوها بعينين مختلفتين يسمى احداهما واجبه ويسمى الاخرى قلبه وما هما سوى اسمين يخفيان تحتهما معنى اخر ، وهو ان الانسان غير جدير بحمل امانة الحقيقة .

ولكن مهما يكن من أمر فؤاد فانه سافر الى النجيلة فى اليوم التالى ، وقد عزم على أن يؤدى واجبه وان كان قاسيا ، وان يتجرع مرارة الحياة الصارمة حتى ثمالتها . فسأل العمدة أن يأتى اليه بتعويضة ، وكان قلبه عند ذلك يهبط به كأنه قطعة من رصاص فى حوض ماء . وأرهف اذنيه يستمع الى جواب العمدة الذى كان أمامه واقفا . ألا ما أعجب الاقدار فى عبثاتها وصدماتها ! فان الرجل اجاب قائلا :

ـ ليست تعويضة هنا ولا يعرف احد مكانها .

وكاد فؤاد يثب عن مقعده فرحا لولا أنه تماسك فأخرج منديلا مسح به قطرات من العرق تقاطرت من جبينه .

ومضى العمدة يتحدث عن تعويضة ، فقال انها هامت على وجهها منذ نفى زوجها فلم يرها بعد احد فى القرية ولا فيما حولها ، ولم يعرف احد لها مصيرا كأنها انطلقت فى البر هاربة من نفسها . وامتزج الفرح بالحزن فى قلب فؤاد ، فانها ان كانت قد نجت من التهمة لم تنج الا الى حياة مشردة مظلمة لا يدرى احد ماذا يكون فيها مصيرها . وعادت اليه صورة الزهرة فى خميلة الشوك بالصحراء لا يدرى احد متى ازدهرت ولا متى سقطت عن عودها ، فلا أقل من ان يعبأ بها هو الذى عرفها وأنس الى مودتها وكان لها فى قلبه مكان أثير . فبالغ فى السؤال عنها متظاهرا بأنه يمضى فى تحقيقه ليستوثق من امرها ، وهو يخفى لهفة شديدة على جمع شوارد الانباء عنها . فأخذ يسأل أين ذهبت اذ هامت على وجهها ؟ وماذا اعتراها بعد نفى زوجها واين كانت تقيم وكيف كانت تعيش ؟

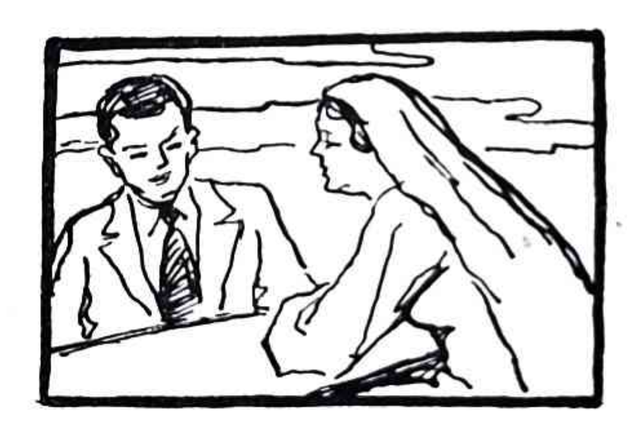
وكان فى نفس الوقت يسأل نفسه هل ذهبت صباحة وجهها ونضارة شبابها ؟ أم لقد ذهب ذلك كله بين عشية وضحاها ، فذوى حسنها كما يذوى حسن الزهرة اليانعة فى

ليلة ؟ ولقد كانت المسكينة تحمل فى احشائها جنينا وكانت تحب أن تسميه (فؤاد) باسمه ، فماذا فعل ذلك الجنين المسكين الذى استقبلته الحياة جاهمة قبل ان يفد عليها ؟ وكان قلب فؤاد يعصر عصرا أليما وهو يعود من أسئلته بالخيبة ، حتى أرتج عليه كل باب فى التحقيق ، ولم يستطع ان يهتدى الى شىء يكشف له سر الجريمة ٠ وقد بلغ به الامر ان تغاضى عن قسوة رجال الضبط فى انتزاع الاقوال من اهل القرى المجاورة لعلهم يفتحون أفواههم بلفظ ينم عن حقيقة تفيده ، فلم يوفق الى شىء سوى ترهات تنتهى الى سدود مغلقة ٠ ولم يجد مناصا اخر الامر من ان يطوى اوراقه فى سجلها وينسب الجريمة الى مجهول ٠

ولكنه مع اخفاقه فى هذا التحقيق عاد الى دمنهور وهو يحس فى قرارة نفسه ارتياحا لا يدرى ما كان مبعثه ٠ أكان ذلك تشفيا خفيا من رجل يمقته ؟ أم كان ذلك ذهابا مع بعض آرائه فى العدالة التى تعمى عنها القوانين احيانا ؟ أم كان لانه خلص من موقف اوشك فيه ان يلوث يديه بدماء تعويضة المسكينة ؟

مهما يكن من امره فقد تنفس الصعداء عندما فرغ من تحقيقه، ولم يبال ما كان يبلغ سمعه من همسات اقرانه ورؤسائه عنه، حتى انه لم يشعر بشىء من الاسى او الاسف عندما جاءه نبأ نقله الى الصعيد بعد أيام ، ولم يقف لحظة ليسأل نفسه أكانت هذه عقوبة على اخفاقه ام كانت لطفا ساقته اليه الاقدار ٠ وجاء أصحابه يواسونه فيما حسبوه محنة ، ولم يعلموا انه كان اسعد الناس فى ذلك اليوم بهذا النقل ساقه الله اليه ٠

- ١٣ -



ذهب فؤاد الى الصعيد وهو يحس كأنه هارب من موطن عبثت فيه الاقدار بقلبه وضميره وحياته ، الى موطن اخر يجد فيه من آثار العالم الغابر ما ينسيه حاضره ٠

فكان كلما وجد فراغا من عمله اسرع الى زيارة اثر من بقايا القرون الماضية فى الاقصر او ادفو او العرابة المدفونة يسرح خواطره فى الماضى البعيد ، ويتحدث اليه عن زوال الانسانية وحقارة همومها ، ويسمو معه فوق هذه الحياة بما فيها من سخف وجور وقسوة وعنف ٠

كان يجلس فى رحاب الاثار الفسيحة ، ويتأمل عمدها الباسقة وهندستها الرائعة ، ويخيل اليه ان ارواح الماضى تناجيه فى رفق الحكيم وتهون عليه ما يساوره من الشجون ٠ فاذا ما اطمأن الى حديثها تجرأ على كشف مافى اعماق نفسه وما يثور بها من آلام ، فكأن نسيما من السلام يهب على وقدتها ٠ كانت تلك الاثار تنطق له قائلة « كانوا ثم ذهبوا » بعد أن خلفوا للحياة احلامهم وخفقات قلوبهم مجسدة فى صور منحوتة او أشكال مرسومة يخيم الصمت عليها ٠ كانت لهم مسراتهم، وكانت لهم احزانهم ، ولكنهم خلعوها مع اجسادهم الفانية فلم يبق منها الا اصداء ضئيلة ٠ ولكن تلك الاصداء سوف

تتردد صافية على مر العصور فتدركها الاسماع المرهفة التى تستطيع ادراكها ، وهى تهتف بالحقيقة الابدية ان مادة هـذه الحياة غرور باطل لا يبقى منها الا الجوهر المصفى ، مثل ذرة ثمينة لا تزيد على مثقال حبة من خردل فى صخرة او فى السموات او فى الارض ٠

ولكن (فؤاد) مع كل ما حدث به نفسه ومع كل ما حدثته به تلك الاثار كان لا يملك ان يبعد عن قلبه صورتين ما برحتا تلازمانه فى كل جولاته ، احداهما صورة تعويضة والاخـرى صورة علية ، وكانت احداهما تعصر قلبه رحمة وحزنا والاخرى تطعنه خيبة ووحشة ٠ وكان يتمنى أحيانا لو جالت علية معه بين تلك الاثار حتى يفضى اليها بما تحدثه به من احتقار عرض هذه الحياة التى لا يبقى منها الا جوهرها الضئيل الثمين الذى يتمثل فى الروح - فى مثل الحب المصفى الذى يحمله لها ٠ اذن لاستطاعت ان تدرك مبلغ ماضيعت عليه وعلى نفسـها ، بايثارها فتاها الاجوف الذى لا يزيد على قطعة من جسد فان ٠

وكان احيانا يصور فى نفسه جدالا شديدا وعتابا قاسيا فى احاديث طويلة ، يسرح فيها مع خياله فيعود اليه حنقـه وتثور عليه كبرياؤه ويفيق من احلامه الثائرة هامسا فى نفسه « أهذا هو الفتى الضحل الذى ارتضته وآثرته عليه ؟ » ٠ ثم يخرج من المعبد العظيم الذى يجول بين اطلاله ثائرا على خياله الذى يطوح به الى مثل ذلك الوهم البعيد ٠ فما الذى يجعـله يتجه بمثل هذا الحنق الى علية ، وما كان احراه ان يتجه به الى نفسه ؟ ألم يكن هو الذى تركهـا تنفلت الى ذلك المنافس الجرىء ؟ لقد كان فى استطاعته بغير شك أن يستميل قلبها لو كشف لها يوما عن حبه صريحا قويا ، فلا يقوى ذلك المنافس الاجوف على أن يهزمه عندها ٠ بل لقد كان فى استطاعته أن يقاوم بحبه الصادق ذلك الفتى ويصرع مظهره المزوق ويخسف أناقته المتبرجة ولفظه المعسول ٠ ولكنه هرب من ميدانه فى شىء لا يقل عن الجبن والضعف ، كأنه طفل ينصرف الى مخدعه باكيا ينتظر من امه ان تلحق به فتسترضيه رأفة به ورحمـة

لضعفه .

ولكنه كان مع كل هذا الذى يضطرب فى اعماقه لا يملك قلبه احيانا من الحنين الى علية ، فتنازعه نفسه الى السفر الى الاسكندرية ، ليقضى حينا فى البلد الذى تقيم فيه ، ويسير على الشواطىء التى لا شك فى أنها كانت تخرج الى النزهة عندها ، ويملأ صدره من الهواء الذى يهب على دارها . وكان يتمنى لو وقع بصره عليها فى نظرة عاجلة ليطفىء بها لاعج الشوق الذى كان ما يزال يضطرم بين جنبيه مع كل حنقه وألمه . بل لقد كان يصور لنفسه ان الامر لم ينفلت بعد من يديه وانه مازال يستطيع اذا اراد ان يذهب الى علية ويكشف عما يغمره من حبها ، فلا يلبث ان يهزم خصمه ويفوز برضائها . ولكنه كان يطوى اياما طويلة مترددا فى نزاع شديد بين ميله وكبريائه حتى تتغلب عليه الكبرياء اخر الامر فيعدل عن السفر ويقبل على عمله فى عنف ، او يخرج الى نزهة اخرى بين الاثار ليسرب شجونه بين أطلالها .

هكذا مضت عليه الايام شهرا بعد شهر ، وكانت الحرب ما تزال ثائرة فى الخافقين تخيم على البلاد بظلالها ورهبتها . وكانت صحف الاخبار تحمل من انبائها كل يوم ما يزيد على اعجب وثبات الخيال . فبعد ان كانت الجيوش الغازية الجبارة تطوى الدول تحت قدميها ، ارتدت موجتها خاسئة وعاد النصر مع القضاء الساخر الى الكفة الاخرى . وبدأت جيوش الحلفاء تطوى الدول تحت قدميها كما كانت جيوش المانيا تطويها من قبل ، وزحفت مثل موجة عنيفة اخرى تحطم وتطحن وتعيد سيرة السطوة الاولى قائلة ان الحق للقوة . واخذت الدول المنتصرة تحتفل بالنصر وتتهم المخذولين على جرائم تشبه ما كان المنتصرون بالامس يتهمون به اعداءهم ، وما الجريمة فى الحالين سوى الهزيمة والخذلان . فكانت العدالة عند الخصمين تنطق دائما ان الحق للقوة .

ورأى فؤاد يوما فى بعض تجواله بالقرى منظرا عجبا على جانب النيل عند قرية منعزلة . رأى جماعة من نساء الغجر

يلتفون حول امرأتين تتباريان مباراة عجيبة لم يشهد من قبل مثلها • وقفت المرأتان ومع كل منهما كيس كبير فيه قطع من نقود الفضة ، وكانت كل منهما تقبض من كيسها قبضة ثم تقذف بها الى اعماق النهر واحدة بعد الاخرى • فسأل من هناك عن سر هذا الاسراف ، فعلم انها طريقتهن فى اثبات المقدرة والقوة • فمن فرغ كيسها قبل منافستها كانت عليها الغلبة ، وكان لامفر لها من الخضوع والاعتراف بالسيادة لصاحبتها •

وتبسم فى سخرية مرة من هذا الحمق البليغ ، ولكنه عاد فسأل نفسه اليس هذا حال الامم الكبرى التى تتقاسم هذه الارض فيما بينها ؟ انها تتبارى فى الابتكار والابتداع وتتنافس فى الانتاج والاستكثار من الخير وتبسط سلطانها على أركان المعمورة فتنزع منها معدنها ونباتها وما بطن وما ظهر من ثروتها لكى تملأ بذلك خزائنها ، ثم ينتهى بها الحال اخر الامر الى مباريات لا تقل فى حمقها وغرابتها عن مباراة الغجريتين اللتين شهدهما على جانب النهر • فتبذل بل منهما ما اصابت من غنى وتتجه كل منها بما اتيح لها من علم وفن ونبوغ لتبدده فى حرب طاحنة يهوى فيها بعضها على بعض فى تخريب وتدمير • وتتأجج ما بينها الاحقاد وتسفك الدماء ولا قصد لها من وراء ذلك الا ان تفوز احداها بالسيادة وتذعن لها الاخرى عن يد وهى صاغرة • ولو ثارت الحروب بين تلك الدول لان بعضها جائع يسطو على جاره ليسد جوعه ، او لان بعضها عار يريد ان ينتزع منه ما يستر به جسمه كما تفعل قبائل البدو اذ تغير على ما يجاورها من الريف • لكان عذرها مفهوما اذا احتكمت الى قانون الغابة الصارم • ولكن تلك الدول تتحارب وخزائن كل منها منتفخة مثل كيسى هاتين الغجريتين ، فما اعجب الغرور الانسانى! وهو غرور لافرق فيه بين صنف وصنف من البشرية المسكينة•

ولما مضى العام الاول على فؤاد فى الصعيد جاءت اليه برقية من سعيد يدعوه فيها الى قضاء الصيف فى الاسكندرية حتى يشهد حفل زواج علية من صدقى ! فيا للصدمة الهائلة ! أهكذا ينتهى الى الحرمان المحقق وتتجسد وساوسه فى الحقيقة

القاسية التى تنكشف له ؟ وكان أول خاطر طرأ عليـه ان بعث برقية يعتذر فيها عن السفر ، ثم استأذن فى أيام يستريح فيها من عناء العمل ، وهرع الى القاهرة ليقيم حينا فى جوارأمه كأنه عاد طفلا يطلب حمايتها ٠

ولما عاد الى عمله كان الصعيد يتوهج بحره فيهب الهـواء كأنه أنفاس لهيب ، فاذا رها وخمد كان الجومثل جوف أتون، وكان منذ نشأته يضيق بالحر ولا يطيق وطأته ، فكان يعانى من أيامه ولياليه آلاما مبرحة ٠ كان اذا خرج الى طرف من الريف فى بعض عمله عاد متوعكا ، واذا احتجب بين جدران منزله أحس كأنها تنطبق عليه وتكتم أنفاسه ، وكانت شجونه الثائرة أشد عليه من كرب الوعكة وضيق الوحدة ٠

ووضعت الحرب أوزارها بعد حين وقيل عاد السلام ، ولكن الحياة كانت ما تزال تنضح دما من جراحها ، كأن الحرب قد أطلقت غرائز النفوس فهيهات لها أن تعود الى حدودها ٠ كان كل من استطاع أن يغنم غنيمة سارع اليها ، فالتاجر يبتز اذا تمكن من الابتزاز فى ستر القانون ، فاذا لم يقنع بما يصيب من ربح لم يخش أن يغامر فى التماس الحيل ليخلص الى ربحه من وراء القانون ، والموظف لا يكفيه مرتب الوظيفة فيحتال على رزقه بالرشوة أو الاختلاس متستروا بما يتهيأ له من مسارب مظلمة ، وصاحب المهنة لا يرضى الا ان يشارك فى اسلاب المعركة الحامية بعد ان يرقد ضميره فى فراشه لينام عنه ، ونشـأت طبقة جديدة من الوسطاء والمهربين لتخدم فى فوضى المعمعة وتصيب من فضلاتها مغنما ، وكان من وراء هؤلاء جميعا طبقة أخرى متربصة تهوى بين حين وحين على الميدان المضطـــرب لتخطف من المحملين بالاسلاب قطعة تجعلها نصيبها ، كمـــا تهوى الذئاب والنسور على أطراف القرى فتصيب ما تستطيع الوصول اليه من قطعانها ٠ هكذا كانت الحياة تضطرب حول فؤاد وكان عليه أن يرفع سيف العدالة الرهيبة على كل من يتعدى حدود القانون من هؤلاء جميعا ٠ فكان لا يكاد يستقـر يوما فى داره الا اذا اضطره الضعف فلزمها مكرها ٠ ومع هذا

فقد مضى عليه سائر فصل الصيف ولم يفكر فى الهروب مما يعانى من المشقة والالم، فقد كان ذلك أهون عليه من الفراغ . بل لقد كان يرى فى تلك الشواغل والاعباء والآلام ما يحول بينه وبين الاحزان التى تعذبه . فلم يطلب اجازة سوى أيام قليلة بين حين وحين ، ليذهب الى القاهرة ليلم بأمه ويتنفس من جانب النيل أنفاسا .

وكانت الام كلما رأته بادرته بالحديث فى أمر زواجـــه ، فتصف له من عرفت من الفتيات ، فهذه قريبة جميلة من أهلها تجمع الجمال الى تمام العقل، وأبوها سرى غنى قد ضن بها على الفتيان الذين تقدموا اليه يخطبونها لانه كان يدخرها له اذا هو خطبها . وهؤلاء كثيرات غيرها من بنات الجيران والاصدقاء كلهن من ذوات الحسن والنسب الرقيع والثقافة العالية ، ولا تمتنع عليه احداهن اذا هو شاء أن يتخذها زوجة . فكان لا يلبث أن يضيق بأحاديثها ويتكلف المرح قائلا ان أوان الزواج لم يحن له بعد ، ثم يخلو فى حجرته فتجتمع عليه شجونه تحدثه حديثا آخر غير حديث أمه . أليس هؤلاء الفتيات جميعا مثل علية التى آثرت الفتى الذى أعشى عينيها بمظهره الانيق ، وخلب سمعها بلفظه المعسول ؟ ألم يحمل لها أصدق الحب وأقواه ثم تركته فى صحراء جرداء ،وذهبت الى الفتى الذى غرها برونقه؟ وهل كان فى هؤلاء الفتيات من تستطيع ان تملك قلبه كماملكته علية او من يستطيع هواه ان يهب لها من الحب ماوهب لعلية ؟فماتزال الهواجس تحتوشه حتى يضيق بها فيسرع أول شىء فى الصباح الى أمه يستأذنها ليعود الى صعيده الجاهم ، فقد كان بحـــره وشقائه ووحشته أرفق به من فراغه الى تلك الشجون .ومضت أيام الحر ثم أقبلت بعدها أيام الخريف فالشتاء ، وعاد الى سرحاته بين الاثار الجليلة يحاول أن يسمو فيها على هذه الحياة الصغيرة التى تحبسه فى حدودها .

هكذا مرت به شهور عامه الثانى فالثالث بالصعيد وطلــع عليه الحر مرة اخرى فجأة كأنه انصب فى ليلة من اطباق السماء ، ووقع بصره ذات صـــباح على اعلان فى صـــحيفة أنباء عن

لبنان ومباهجه بعد أن فتحت اليه السبيل ، فكأنه وجد ضالة كان ينشدها • فهو لبنان الذى يستطيع أن يجد فيه ملجأ من حياته الرتيبة الموحشة ، وهو الذى يبعد به عن الاسكندرية وشواطئها • فاستأذن فى أجازة شهرين وسافر الى القاهرة ليقيم فيها أياما قبل سفره •

ولم يكن فى حاجة الى اطالة الاعتذار الى أمه عن مفارقتها الى لبنان وحده ، فقد كان أحب الاشياء اليها أن تراه سعيدا ، ولم يكن لها أرب فى السفر الى قطر بعيد يقع من وراء بحر فسيح •

ولما أعد عدة السفر وثب فى الطائرة فوق شاطىء البحر الابيض ورآه من تحته شطا ضئيلا يدرج ظل الطائرة من فوقه كما تدرج النملة فوق مصور جغرافى • هذا هو البحر الذى تعيش علية الى جوار شاطئه مع زوجها صدقى ! هذا هو الخط الضئيل من الرمال الصفراء التى طالما سار عليها تتقاذف به الاهواء فحينا تتدفق فيه الحياة السعيدة وحينا تلفه ظلمة اليأس • وما كان أتفه ذلك الشاطىء وهو يتظر اليه من أجـــــواز السماء !

- ١٤ -



هبطت الطائرة في بيروت وصعد فؤاد في السيارة الى الجبل فنزل في فندق يشرف على واد أخضر من أودية لبنان الباسمة ووقف في الاصيل على الشرفة يطل على الهوة التى تحته تنحدر الى أعماقها جريئة جبارة في درجات عالية كأنها سلاليم بنتها المردة العماليق ٠

كانت أشجار الصنوبر توشي السفح قائمة بعمائمها الخضراء فوق جذوعها الباسقة ، وفى أسفلها الكروم وأشجار الفاكهة تتكىء على جوانب الدرج طبقة تحت طبقة حتى تنتهى الى قاع أسمر يتعرج فيه جدول دقيق من ماء ضحل يلمع في آخر أشعة الشمس المائلة ٠ وكان البحر يلوح من وراء الوادى أزرق هادئا فسيحا يخدع البصر عن أعماقه فيخيل الى الناظر اليه أنه بساط ناعم من مخمل ٠ وكان الجو رفيقا والهواء هادئا لا تخفق فيه ورقة ولا يتحرك عليه طائر ٠ فأين العصافير المزقزقة وأين البلابل الصادحة وهذه أعشاشها فوق غصونها خاوية ؟ وانحدرت الشمس الى الغرب وامتدت الظلال فى السفوح فرأى السحب ترنق فى السماء بيضاء حمراء ذهبية ، تترامى من بينها اشعة الاصيل نحو البحر مثل فيض دافق وخيل الى فؤاد ان الكون معبد يتردد فيه ترتيل مقدس ٠ هذا

هو لبنان الذى طالما حلم به ،فلما رآه كان حلما فى حلم ٠وشاع من حوله صفاء بعث فى نفسه شجنا لا مرارة فيه ٠

وذهب فى تأمله الى ما بعد وما قرب ، وأحس للمرة الاولى منذ سنتين أنه نسى آلامه وعاد يستجيب الى طرب الحياة٠وصعد الى غرفته يحس دافعا علويا يبعثه الى الصلاة ، فتوضأ وصلى ثم جلس حينا يقرأ من آيات القرآن ٠

ونزل بعد أن ساد الظلام الى الشرفة فأجال بصره خلال حلقات المصطافين ولم يكونوا بعد قد تزاحموا ، وتمنى لواندس فى احداهاوخاض معها فى أحاديثها ، فقد كان قلبه ينبض خفيفا متعطشا الى الائتناس ٠

وكان البحر قد توارى فى حجاب الليل وأخذ الوادى يتشح بعناقيد من أنوار الكهرباء تنبعث من القرى المنثورة فى قيعان الوادى وعلى سفوحه ٠ فكأن تلك الانوار قلائد من الماس تتلألأ على صدر زنجية حسناء ٠ ولله در شاعر الشام الاعمى كأنه أدرك ببصيرته ما يعجز عن وصفه المبصرون اذ قال :

ليلتى هذه عروس من الزنج عليها قلائد من جمان

ونزل فؤاد من الشرفة على سلم الفندق الى الطريق المنحدر نحو الوادى ، ثم سار يقلب بصره عن يمين وشمال فى جذوع الصنوبر وأغصان الكروم الملتفة وما يتخللها من أعوادالاعشاب والشجيرات ٠ وكان نور القمر الصغير ما يزال خافتا لا يكاد يهديه سبيله ، فأحس شيئا يشبه خيبة الامل ٠ فان تلك الاودية البديعة التى تبتسم فى ضوء النهار لم تخلق لسيرالليل لمن اراد ان يسبح فى السماء ٠ فأين سحر وادى النيل السهل الحبيب الذى يسحر اللب فى مثل هذه الليلة الساكنة ؟ أين جانب النيل فى القاهرة والجيزة حيث يسرح البصر فى الحدائق الفيحاء يصعد حينا فى شجر باسق ويصوب حينا فى خمائل زهر باسم ؟ وأين الالوان التى تبعثها أرض السحر القديم فيما ينبت على ثراها ، وما يسبح فى سمائها ؟ ووثب الخيال بفؤاد عائدا الى الربوع التى أنس اليها وخطرت له خطرة من علية ذات الوجه النبيل الذى ما زال يطل عليه من ثنايا ذكرياته باسما

قاسيا . ولم يسر طويلا على سفوح الوادى اذ كانت عينيه تصطدم فى كل خطوة بظلمة من وراء ظلمة . وكانت صفحة السماء تبدو من وراء أضراس الجبال قاسية مكشرة جامدة ، فعاد الى الفندق المرح حيث كانت الانوار تسطع فيضا غامرا . ودخل الى البهو يتلفت بين الناس لعله يجد فيهم من يدعوه بنظرة. ولكن الحلقات الضاحكة كانت منصرفة الى الموسيقى الصاخبة قانعة بأنفسها ، فلم تتجه اليه بنظرة الا أن يرتفع رأس نحوه. يحسبه صديقا ، ثم يرتد عنه مسرعا . وكان الراقصون يتواثبون فى رشاقة مع الانغام الصارخة الجشاء ، ولا يلتفت أحد منهم عن زميله الا بمقدار ما يزهى بنصيبه على من يليه . أما هو فقد كان وحيدا ، وكانت الساعة قد بلغت العاشرة ، فأحس شيئا من الاغتباط اذ فاته العشاء لانه كان أعد فاكهة فى غرفته لتكون عشاءه . انها فاكهة لبنان .

ووقعت عينه فى آخر البهو على أسرة رآها عند أول مقدمه، تقيم فى الجناح الذى ينزل فيه . فنظر رجلها اليه نظرة فيها تحية قصيرة فرد تحيته حانيا رأسه، ودعاه الرجل الى الجلوس صائحا بلهجته اللبنانية : « شرف » . والتفتت زوجته نحو فؤاد وتبسمت وأحنت رأسها فى ظرف . فذهب فؤاد الى كرسى قريب وجلس عليه ، ولم تمض الا دقائق حتى كانوا يفيضون معا فى شعاب الحديث .

وكانت السيدة لبنانية يشع وجهها بشرا ونضارة ، وهى شابة تبدو فى الثلاثين ، ولكنها كانت بغير شك أكبر من ذلك سنا ، اذ كان ابنها الاكبر فى نحو الثامنة عشرة . وكان رب الاسرة تاجرا من ثراة بيروت يأتى مع أهله فى كل صيف الى الجبل يقيم فيه بعض أسابيع مستجما . وقد عرفت السيدة مصر وزارتها مرارا فى صباها ولها فيها أهل وأصدقاء ، وما أظرف أهل لبنان اذا ما تحدثوا عن مصر الى أهل مصر . لقد خيل الى فؤاد وهو يسمع حديثها ، أن بلاده جديرة بأن يهب لها من حبه أسمى مما يهب لها، لو كان فى استطاعة قلب البشر أن يجد فى الحب موضعا أسمى . واتجه حديث السيدة الى من عرفته

من أهل مصر ومن جاء منهم الى لبنان فى ذلك العام ، وكانت تتحدث فى حماسة عما رأته من مباهج القاهرة والاسكندرية وتطيل فى وصف مغانيهما • وكان السيد منصرفا بنظره الى حلقة الرقص • فجرى الحديث بين فؤاد وبين السيدة كأنهما صديقان حميمان •

ومنذ تلك الليلة الاولى صار فؤاد كأحد أفراد أسرة السيد عبد الله بطرس ، فكان معهم على المائدة وفى البهو ، وكثيرا ما كانوا يجولون معها بين القرى الجميلة ، فيزورون أركانا ما كان يستطيع فؤاد أن يهتدى اليها لو سار وحده• ومرأسبوعان أحس فؤاد بعدهما أن نفسه تسفر بعد غيمها وجسمه يتعافى بعد سقمه وتدب اليه القوة ، وزالت وحشته وصار لا يذكر آلامه الا كما ينظر الآيب من سفر الى الافق الذى خلفه وراءه • وجلس فى الصباح يوما على المائدة ينتظر نزول أصحابه ليفطروا معا ، وكان منظر الوادى يتفتح تحت أشعة الشمس المشرقة فتبدو منه قطعة بعد قطعة كأنه يتحرك فاترا بعد نوم عميق •وانصرف اليه يدس بصره فى شعابه وبين أشجاره ويتنفس من الهواء الذى طالما سمع أنه يجلو الصدر ، فلم يشعر بمجىء السيدة حتى سمع صوتها المرح يحييه تحية الصباح • فقام يستقبلها ورأى فى نظرتها بسمة وهى تقول :

ـ لقد أتى الى هنا بالامس أصدقاء أعزاء ، وانه ليسرك أن تعرفهم بغير شك •

ولم تنتظر حتى يسألها عن هؤلاء فمضت فى حديثها تصفهم قائلة : انهم أصدقاء قدامى عرفتهم من سنين حتى كأنهم صاروا أهلها • وأشارت برأسها فى تجاه أقصى الشرفة قائلة :« انظر الى هناك » •

فنظر فؤاد الى حيث أشارت ، فرأى سيدتين وثلاثة أطفال، وكانوا فى الطرف الاقصى من الشرفة المزدحمة ، وقد صفت فيها الموائد وعليها أكواب القهوة والشاى وأوعية الزيتون واللبنية والزبد ، وكان الخدم يتسارعون فى تلبية كل نداء فلم يستطع فؤاد أن يتبين من السيدتين سوى صفحة وجه

احداهما اذ التفت لفتة سريعة الى الاطفـــال الذين يتواثبون حولها ٠
ولكن شيئا فى هيئتها استرعى نظره كأنه قد سبق له أن رآها ٠
وسألته السيدة : أما تعرفهما ؟
فقال فى تردد :
ـ لا أظننى أعرفهما وإن كان يلوح لى من احداهن شبه أتذكر منه صورة مبهمة ٠
فقالت السيدة :
ـ هى أسرة ثرى من ثراة الاســـكندرية اسمه مصطفى بك سرى !
فكاد فؤاد يثب من مقعده ومد عنقه متطاولا ٠ انها بلا شك أمها ٠ هى أم علية نفسها ، وأما الاخرى فلم تسبق له رؤيتها
وقال محاولا اخفاء اضطرابه :
ـ أظننى أعرف هذه الاسرة ٠
وسأل نفسه فى لهفة : « وهل علية معهما ؟ » وود لـــو تحدثت السيدة فأفاضت ليسمع منها ذكرها ٠
فأخذت السيدة تتحدث عن الاسرة وكانت تعرف الكثير من خبرها ، وعجب فؤاد كيف جمعت كل هذه الإخبار فى يوم ، وما كان أظرف تألفها وثرثرتها ٠ ثم نطقت أخيرا بما كان فؤاد ينتظر منها فقالت :
ـ كانت ثريا هذه التى تراها فتاة صغيرة عندما رأيتها هنا قبل الحرب ، ألا ترى كيف تزوجت وصـــار لها ولدان ٠ ألا ما أظرفهما ! وأما هذا الطفل الاشقر الثالث فهو ابن أختهــا علية ، التى لم أرها منذ كانت صبية هكذا ٠
وأشارت بيدها لتدل على صغرها ٠
فنطق فؤاد بغير وعى :
ـ أهى هنا معهما ؟
فنظرت اليه السيدة فى شىء من الدهشة وسألته :
ـ أتعرفها ؟

فأدرك فؤاد خطأه وقال وهو يستجمع نفسه :
ـ نعم لانى أعرف أسرتها ٠
فهزت السيدة رأسها أسفا وقالت :
ـ مسكينة علية ! انها صغيرة !
ولم يستطع فؤاد أن يسألها فى لهفة كما هم فى نفسه أن يسألها :
« ولم تكون علية مسكينة ؟ علية المرحة الضاحكة القاسية ؟ »
وأخذت السيدة تتحدث وهو مصغ الى قولها بجميع حواسه يعلل نفسه بأنه سوف يراها ٠ وذهب ظنه مذاهب شتى فيما أصابها ، حتى جعل السيدة ترثى لحالها ٠ فهل مات أبوها ؟ ولم تكون هى المسكينة وحدها ؟ أم جدت عليها أحزان أخرى مما يصيب مثلها ؟ أكانت مسكينة من أجل زواجها ؟
أليست هى التى اختارت زوجها ، وآثرته عليه ، ووجدت فيه قصارى أملها ؟وعلق نظره بأبواب الشرفة لعله يرىوجهعلية يطلع من أحدها ، فما كان أشوقه الى آن يراها ويحدثهاويعاتبها وان كاوح قلبه وجحده قسرا ٠ ولقد ود لو جلس الى جانبها يشاركها همومها ويواسيها فيما جعل السيدة مارى ترحمها٠
وكان حديث السيدة عنها متقطعا بين توزيع الشطائر وصب الشاى وملاحظات تبديها بين حين وآخر علـى قادم جديد أو جالسة على مائدة أخرى ٠ ولكن قصة علية كانت مثل خيطلامع يبرق فى ثنايا حديثها فلا يكاد فؤاد يسمع سوى ما يتصـل بها ، يلتقطه كأنه يسل خيطا من الحرير فى لفائف معقدة ٠
ومع ذلك فانه لم يخل من شعور يشبه أن يكون ارتياحا عندما علم ان علية لم تكن سعيدة فى زواجها ٠ علم ان زوجها عنيف جشع كما تصوره لا يحرص على شىء الا على انها ابنة الثرى الغنى الذى سوف يترك وراءه ثووة كبرى ترثها عليـة لكى يتمتع هو بها ٠ وما كان مثل هذا الفتى الانيق المعجب بنفسه ليقدر على أن يضم أضلاعه على حب مثل حبه المصفى ، ولا أن يعرف قدر علية مستقلةعن كلماعداها ٠بل لقد كان شعوره يشبه ان يكون شماتة لم يستطع أن يقاوم الاسترسال فيهـا

حينا . لانها فضلت صدقي عليه ولم تستطع أن تتغلغل الى ما تحت ظاهره الخادع ، كما تنخدع الغريرات بمظاهر أمثاله من الشبان ، فهي تلقى جزاء قلة بصرها وسوء اختيارها .
ولكن ما كادت السيدة تفرغ من الحديث حتى تبدل شعوره فانقلب انقباضا وحزنا . وذهبت عنه الشماتة الكالحة ، وحل في مكانها الرثاء والرحمة . ثم لمح في أعماق نفسه أمنيـــة غامضة كما يلوح وميض النار من خلال الرماد . أتزول العقبة التي تفصل بينه وبين علية ، ويختفي ذلك الشاب من بينهمـا فجأة كما ظهر بينهما فجأة ؟ ولكن أكانت علية ترضى بذلك لو حدث وتقبل عليه باسمة سعيدة ؟

ولما فرغوا من الافطار ذهب فؤاد مع السيدة ماري الى الاسرة ليقدم تحيته اليها ، وكان أحد الاطفال ابن علية ، يدرج في أول مشيه ، وكان له وجهها وعيناها الزرقاوان وشعرها الاشقر . وتبسم الطفل الى فؤاد وهو يقبله وأنس اليه ذلك الانس الذي يملأ به الاطفال القلوب انشراحا .

ولكن علية لم تنزل الى الشرفة في ذلك الصباح ، فقد أتعبها السفر وآثرت البقاء في غرفتها . وتمنى فؤاد لو دعته أمها أو أختها الى عيادتها ، ولكنهما استأذنتا بعد قليل وصعدتا وحدهما بعد أن حملهما فؤاد تحيته اليها .

ولما بقي وحده عاد اليه ما كان يعتريه من ضيق ووحشة بعد أن خيل اليه أنه قد شفي منهما ، وخشي أن يطول عليه يومه اذا هو قضاه في الفندق ساكنا ، وهو يعلم أن علية تقضي اليوم كله في غرفتها ، وما كان ينبغي له أن يقبع في ركن الشرفة طول يومه متلهفا الى رؤيتها .
فأخذ سيارة الى بعلبك لزيارة معبدها القديم ، وسار حينا في سهلها الاحمر الفسيح الاجرد ، يحاول ان يصرف نفسه الى التفكير في المناظر التي حوله لعل ذلك يشغله ويهون عليه انتظار يومه حتى يعود الى الفندق في المساء . وكان منظـر الاقليم شبيها بما ألف من مناظر مصر ، وكان أهله قريبين الى

البدو من قومه ،فكان يحدث نفسه فى مدة رحلتهعن هذه البلاد التى تمزقت قطعا كما يتمزق البدن فى أشلاء متناثرة ، وكل قطعة منها تعيش وحدها فى رقعة صغيرة لاتكاد تغنى شيئا فى حياتها ، وقد قنع اهل كل قطعة منها بما هم فيه واغتروا بأسماء ينخدعون بهاأو يخدعون أنفسهم بسحرها ٠فما ذلك الاستقلال الذى يتلقفه الناس خرافة عن القدماء ؟

ما معنى ذلك الاستقلال الممزق اذاكانت الامم لاتجد فىأرضها ما يدعم وجودها ؟

انها خرافة خلفها القدماء يوم كانوا فى أيام فطرتهم الاولى ، ثم تلقفها أهل الجدل وسخفاء الرأى الذين أوغلوا فى طلب الحرية حتى مرقوا منها ٠

فان الامم تتجمع اليوم فى كتل كبرى لتكفل الحياة لانفسها وما هذه الارض الفسيحة التى تمتد من حدود الترك الى وسط أفريقيا ، والتى تمتد من بحر الهند الى بحر الظلمات سوى أجزاء يتم بعضها بعضا ٠ وليس من بينها من فرق المكان والارومة مثل ما بين شرق أمريكا وغربها أو شرق روسيا وغربها ٠

ولو كانت الفرقة التى بينها من صنع الغير لكان عذر هذه البلاد أنها مغلوبة على أمرها ٠ ولكن الفرقة آتية من قبل باطنها ففى كل رقعة منها فرقة تنظر الى نفسها ولا تعبأ ما يكون من أمر بلادها ما دامت تفوز بالسيادة فى أفقها الضيق ٠ ألم تكن هذه حال الاندلس قبل زوالها ، اذ كان لكل مدينة منها أمير للمؤمنين ومنبر ؟ظل هكذا فؤاد يحدث نفسهحتى عاد الىالفندق

فى المساء ، ووثب قلبه عندما رأى علية على الشرفة تطل على الوادى ساهمة والاطفال يسعون من حولها كفراخ القطا ٠وكان وجهها مصفرا فيه أثر من هزال ، ولكن ما كان أصفى لون عينيها وما كان أبدع قسمات وجهها !

لقد كانت هى علية التى رأى صورتها أول مرة فى مرسم

أخيها ، صورة الراهبة فى الثياب البيض ! أهذه الصورة الوديعة هي التى اختارت (صدقى) وآثرته عليه وغرها لألاء مظهره ؟ أهاتان العينان الزرقاوان الصافيتان هما اللتان لم تستطيعا النفوذ الى أعماقه لتبصرا ما هناك من حب صاف ؟ أم كان هذا كله من صنع خياله ولم تكن علية سوى أنثى من الحيوان فاختارت من استطاع أن يشق طريقه اليها فى قوة غير متردد؟ أكانت زلة منها أم هى زلة منه أم هى عبثة من عبثات المقادير التى تحمل البشر فى تيارها كما يحمل تيار النيل العود الضئيل الذى رآه من قبل ؟ واستقبلته علية مرحبة به ترحيبا مخلصا صريحا ، ولكنه رأى فى عينيها بسمة حزينة خيل الى عقله المرتبك أنها تحمل معنى الاعتذار ·

وشكرته علية على تحيته وسؤاله عنها ، ثم أخذت تتحدث عن الجو ومنظر الوادى وجلالة الجبال ، وحاول فؤاد أن يتماسك فى ارتباكه ، ويبحث عن مسيل سهل للحديث ، ولكنه وجد أبواب الحديث مقفلة دونه الا بابا واحدا كان يود لو اقتحمه فيسألها عن نفسها وعن حياتها وعن آلامها · وشعر بارتياح عندما أتت السيدة مارى فملأت المجلس مرحا وضحكا ، ولكن ما كان أعظم الفرق بين صوتها وبين صوت علية !

ولم تلبث علية أن أقبلت على السيدة مستجيبة الى حديثها المرح ، فانفرجت أساريرها وعاد الى وجهها شيء من لونه القديم واستطردت السيدة فى حديثها تسأل علية عن أخبارها · فعلم فؤاد فى تلك الساعة كثيرا مما كان يود ان يطلع عليه، فعرف أن زوج أختها ثريا سيأتى بعد أسبوع ،ولكن (صدقى) سيتخلف فى مصر لقضاء أمور لا تحتمل التأجيل · وأما سعيد فانه قد سافر الى ايطاليا لانه لا يطيق سكون لبنان · اذن سيتخلف صدقى فى مصر وستكون علية وحدها فيستطيع ان يراها كل يوم فى مجلسها ، وقد يجد الفرصة أحيانا ليجلس اليها وحدها ·

وعادت الى قلبه تلك الامنية التى تسللت اليه عندما سمع بشقائها فى زواجها ، فانه ما زال حرا فارغا لها لا ينتظر الآن

تزول العقبة التى تحول بينه وبينها .

ولكن أكانت هى ترضاه لو عاد اليها ؟ أما كانت هى التى اختارت زوجها عليه أول مرة ولم تستجب الى نداء قلبه المخلص الذى كان يصيح بها كلما رآها فما الذى يمنعها اذا هى فارقت زوجها ان تعيد الكرة وتختار فتى آخر تؤثره عليه مرة أخرى ، فتزيده شقاء على شقاء وتجرح عزته وتدمى قلبه وتزيده عزوفا عن الحياة ؟

- ١٥ -



مضت الايام سراعا حتى كاد الاسبوع ينقضى ، وخشى فؤاد أن يأتى زوج ثريا فيبدو للاسرة التنقل فى أركان الجبل على عادة المصطافين ، وما كان ليجرؤ على تعقبهم فيما يذهبون اليه من القرى ، ولم يظهر له من علية فى تلك الايام شىء يدل على تبرمها بحياتها سوى بعض اطراق وصمت كانا يعتريانها • فكانت أحيانا تنطوى على نفسها فلا تشارك فى الاحاديث ، ولا تطرب الى شىء من المرح ، وتشرد بنظراتها كأنها تسرح فى عالم بعيد • ولكنها مع ذلك كانت تأنس الى فؤاد كلما رأته ولاتتردد فى أن تطلب اليه ان يؤدى لها بعض خدمات ضئيلة ،وتطلبمنه ذلك فى يسر طبيعى كان يقع منه موقعا مسعدا •

وفى تلك الايام فاز فؤاد بثقة ولدها الاشقر الظريف ، فكانت علية تبتسم مرتاحة كلما رأته يفتح له ذراعيه فيثب الطفل بين يديه ويضحك مكركرا اذا رفعه فوق رأسه مداعبا •

وفى آخر يوم من الاسبوع أرادت علية أن تنزل الى بيروت

لتشترى بعض ما تحتاج اليه لنفسها ولولدها ، وعهدت الى فؤاد أن يستأجر لها سيارة • فكان من الطبيعى أن يعرض عليها صحبته ليكون فى خدمتها ، ولعلها كانت تنتظرمنه هذا فقبلت شاكرة ، وكانت تلك هى الفرصة التى تمنى فؤاد سنوحها فى خفى ضميره •

وكان يوما من أواخر يولية وقد أخذ الجبل يزدحم بالوافدين وسالت الطرقات بالسيارات صاعدة هابطة فوق منحدرات الجبال ، تكتنفها جدران الصخر من جانب ومهاو سحيقة القرار من جانب آخر • وكان السائق شابا جريئا فكان يهوى على السفح كأنه يعرف قياس أبعاد الطريق اصبعا اصبعا • فقالت علية فى بعض هذه الليات العنيفة •

— أحمد الله على أنك معى يا فؤاد ، فقد كادت هذه السيارة تخلع قلبى •

وطرب فؤاد لقولها وأخذ يحدثها عن الاودية التى شاهدها فى جولاته مع أسرة السيد عبد الله بطرس ، وعن عيونها وما يتحدث به الناس عن خصائصها العجيبة فى شفاء الامراض المستعصية فشغلها بحديثه عن منعرجات الطريق ومخاوفها ، حتى بلغت السيارة بيروت • وتبدل الهواء فصار بعد لطافته كثيفا ،وبعد اعتداله حارا ثقيلا حتى بلغوا سرة المدينة فى زحمتها وضجتها كأنها ركن من أركان الاسكندرية القديمة •

كانت مجالس الناس كالعناقيد على المقاهى كما هى فى مصر وكانت هناك الحوانيت الضيقة والمركبات البطيئة ، والناس اذ يتحدثون والملابس والالوان والصيحات راضية وساخطة • كانت كل هذه مناظر عهد فؤاد وعلية مثلها فى مصر ، فكانا يعجبان ما الذى يفصل هذه البلاد بعضها عن بعض ويقطعها قطعا وما هى سوى رقعة خلقها الله لتكون واحدة •

وقضيا فى المدينة صدر اليوم كله ثم مالا على فندق مطل على البحر ليتغديا فيه ، وأخذ الحديث يجرى سهلا غير منقبض ،

فأعاد الى فؤاد ذكرا من أيامهما بالاسكندرية ، وخيل اليه أن علية كانت تود لو وجدت وسيلة الى الافضاء اليه بمكنون أشجانها . ولكنها كانت كلما بدأت فى شىء من ذلك ترددت ونكصت ، ولم يجرؤ فؤاد على أن يبدأها بسؤال خوف أن يكون فيه اقتحام لما تؤثر اخفاءه .

ثم تجرأ آخر الامر فقال لها :

– أأنا واهم يا علية اذ أرى عليك أثرا من هم ؟

وترددت علية فى الاجابة فمضى فؤاد قائلا :

– انه فضول منى أن أسألك مثل هذا السؤال ، ولكنى أعتمد فى جرأتى على اخلاصى ومودتى .

فرفعت رأسها وقالت فى حرارة :

– بل هو تفضل منك يا فؤاد أن تسألنى سؤالك هذا . ولقد شكرت الله منذ رأيتك هنا ، كأنه أراد أن أجد فى هذه الجبال النائية صديقا أستطيع أن أثق بمودته فأفضى اليه بما عندى .

فقال فؤاد مرتاحا :

– اننى سعيد ياعلية اذ اعرف اننى ما زلت عندك صديقا .

فقالت علية :

– أتشك فى معزتك عندنا ؟ لقد كنت دائما انظر اليك كما أنظر الى أخى .

ووثب قلبه عند ذلك واعاد قولها فى نفسه كئيبا . انها لا تنظر اليه الا كما تنظر الى اخيها .

وأطرق يفكر فى الاحلام البعيدة التى غرق فيها حينا فى الاسكندرية اذ كان ينعم بسعادة من الوهم يتخيلها فى نظراتها وبسماتها .

كان يخيل اليه عند ذلك ان نظراتها تتحدث احيانا اليه عاطفة وتناجيه قائلة : « هذه الحياة لنا » ، ولكنها كانت فى كل ذلك تنظر اليه كما تنظر الى اخيها .

وقالت علية عندما طال اطراقه :

ـ أرجو ألا أكون قد تعثرت فى قولى لك كما كانت عادتى ان أتعثر فى القول معك . اننى لا اقدر على وزن الفاظى كما تزنها انت ولا ادرك منها ما تدرك انت بذكائك . لقد كنا نقضى الساعات أنا واخى نتحدث عنك، وكانت احاديث اخى تجعلنى أسأل نفسى كلما خلوت اليها بعد زيارتك عما عسى أكون قد تعثرت فيه فى حديثى .

ولكنى كنت دائما اجدك تغفرُ لى عثراتى .

أنا حائرة يا فؤاد ويزيد من حيرتى اننى تعودت فى هذه الشهور الطويلة التى مضت بى أن انطوى على آلامى قانعة بمناجاة شجونى حتى كأننى أغلقت نفسى على نفسى .

وكانت تقول كلماتها متقطعة تقف بين كل عبارة واخرى ، كأنها تريد ان تزن كل حرف منها . وكان فؤاد ينتظر الفاظها وتدور فى داخله احاديث طويلة حول كل لفظ منها .

وقال لها فى عطف :

ـ هذا ماأدركته منذ أول نظرة عند لقائنا . وهذا مابعث الى القلق ، ودفعنى الى أن أسألك سؤالى .

فأجابت :

ـ لست أعرف كيف أعبر لك عن شكرى . ولعل هذه الايام قد ردت الى بعض اطمئنانى عندما رأيتك الى جانبى .

وصمتت حينا ثم قالت :

ـ ما كنت أحسب أن الحياة تغير ألوانها تحت نظرى فى مثل هذه السرعة . ولكن ... ماذا أقول لك ؟

وكان فؤاد ينظر اليهاعاطفا وهى تتحدث، وهم مرارا بأن ينطق ليحثها على الافضاء بما عندها ، ولكنه كان لا يجد من الالفاظ ما يصلح لان يعبر به عن مشاعره .

وقالت بعد صمت آخر :

ـ أرى كأنك تمنع نفسك عن القول يا فؤاد · ولست ادرى. لعل ذلك ذنبى انا · فاسألنى عما بدا لك فقد يساعدنى سؤالك على أن أجد الموضع الذى احتاج الى الافضاء به · حدثنى بما شئت فان حديثك يتيح لى فرصة التنفيس عن آلامى ·

فقال فؤاد عاطفا :

ـ ليتنى أقدر على أن أحمل عنك آلامك يا علية · ولست فى حاجة الى أن أقول لك اننى لا اجد سعادة اكبر من ان اشعر باننى جدير بثقتك ·

فقالت علية : دعنى اخفف من آلامى بكشف مافى نفسى · لقد كانت حياتى فى هذه الشهور الاخيرة جحيما ·

ودمعت عيناها فأدارت وجهها ومسحتهما · ثم قالت بعد لحظة صمت :

ـ كان صدقى فى أول الامر رفيقا عاطفا موافقا · كان لا يدع فرصة لا يظهر فيها من شخصه جانبا جديدا لامعا ، حتى خيل الى انه الرجل الوحيد الذى يستجيب الى ندائى · ومع ذلك·

ثم أطرقت حينا صامتة مترددة ·

فنظر اليها فى لهفة وأطرق صامتا · ألا ما اشدها عليه من ذكرى !

ورفعت رأسها بعد حين وقالت :

ـ اننى احس نوعا من الخوف كلما اردت ان اجهر بما يجول فى نفسى · ولكنى مع ذلك لا اريد ان اخفى عنك شيئا · لقد كنت مع كل ما بدا لى من صدقى احس فى قرارة قلبى شعورا غامضا باننى مقبلة فى زواجه على أمر خطير يشبه المغامرة ، امر غامض مبهم لم استطع تحديده او ادراك حقيقته ·

وصمتت مرة اخرى مترددة · فلما بدأت تتحدث بعد ذلك كانت تقلع الالفاظ واحدا بعد واحد كأنها تحمل نفسها على الحديث قسرا · وقالت :

ـ وكنت كلما حدثت عنه نفسى خالية لا املك ان أرى

ومضات خفية كأنها نذر عاصفة بعيدة . ولكنى مع ذلك مضيت في سبيلى كأن تيارا قويا يجرفنى .

وحولت بصرها الى البحر فنظرت الى الافق البعيد ساهمة . واحس فؤاد عند ذلك حزنا يغمره . بل لقد عاد اليه حنقه القديم على نفسه اذ اتهمها بانها قد جنت عليه كما جنت عليها . وتذكر كيف كان يلقاها ويحدث اليها ويخرج معها الى المنازه ثم كيف كان يكبح مافى نفسه فلم يبح لها مرة بحبه ، بل انه لم ينطق بها بكلمة تنم عن حبه لها زاعما لنفسه ان مناجاة الحب ارخص من ان يسوقها اليها .

كان يوهم نفسه بأن حبه القوى لن يلبث ان يصل الى قلبها بغير حاجة الى لفظ يقلل من صفائه وصدقه وقوته . اما كان فى ذلك غبيا احمق يهيم فى خيال سخيف ؟ أما كان يعيش فى عالم بعيد فى عصر سحيق عندما كانت القلوب فى حجاب كما كانت الوجوه تتستر بالحجاب؟ والا فكيف ترك ذلك الفتى الجرىء يتودد اليها ويحدثها ويزوق لها الفاظ الاعجاب حتى جرف قلبها فى تياره كما تقول ؟ أما كان هو الجانى على نفسه وعليها اذ اخفى قلبه عنها وبالغ فى صمته خوف ان يتعثر فى لفظ او يدنس حبه العلوى بما ينم عن رغبة ؟ ألم يكن ذلك منه جبنا وجمودا استحق من اجلهما حرمانه من السعادة التى كان ينشدها . ها هى ذى امامه تنطق صريحة بأنها قد اخطأت لان الفاظ صدقى قد جرفتها فى تيارها ، ولو أنه أسمعها ألفاظه التى تعبر عن حبه الصادق لما استطاعت الفاظ صدقى المزوقة ان تجرفها .

وكاد فى تلك اللحظة يتدفق معتذرا عن تقصيره مفصحا عما أطال كتمانه من حبه لها ،ولكنه بقى صامتا ولم يجرؤ على النطق الا ان قال وهو يجمجم اضطرابه :

ــ لست استطيع ان أصف لك ألمى من أجلك يا علية . ولكنى أضع بين يديك مودتى ونصحى . فأحب ان اسألك سؤالا .

وعادت الامنية الاولى فلمعت فى اعماقه مرة اخرى ·
أيمكن أن تزول العقبة التى قامت بينهما ؟

وكاد يجمع شجاعته ، فيسألها لم اختارت ذلك الزوج دونه ، وكيف لم تحس بما كان فى قلبه من الحب وان لم يفصح لها عنه ·

ولكنه سمعها تقول :

ـ أحب أن تسألنى سؤالك · سل ما بدا لك · ولايخامرك شك فى ثقتى ·

فقال فؤاد كالمعتذر :

ـ هو سؤال جرىء بغير شك وقد يكون سؤالا سخيفا · ولكنى لن اتردد فيه لان عليه يتوقف كل ما بعده من اسداء نصحى · أتحرصين على صدقى ؟

فنظرت اليه فى شىء من الدهشة كأنها لم تتوقع منه ذلك السؤال · وأطرقت حينا ، ثم رفعت رأسها ، وعلق فؤاد انفاسه ليسمع جوابها ·

والتفتت الى ولدها وقالت بصوت خافت : من اجل ولدى!
ثم رفعت منديلها فمسحت عينها ·

فكاد يصيح قائلا : « انك تخدعين نفسك يا علية · انت تحبينه ويزداد حبك له كلما قسا عليك » · ولكنه ملك زمامه قسرا فلم يجب بحرف ، وأخذ طفلها بين يديه يقبله ويداعبه ·

وتغديا معا فى شرفة الفندق ، وأخذ الطفل يثرثر فى لغته الظريفة ، فانصرف الحديث اليه فى أثناء الغداء ، فهدهد ذلك من نفسيهما · فلما جلسا يرشفان القهوة بعد الغداء أخذ فؤاد الطفل وضمه الى صدره ، وجعل يداعبه والطفل يمد اليه يده فيعبث بشاربه حينا ويجذب طربوشه حينا · فوضع فؤاد طربوشه على رأس الطفل حتى غطى عينيه ثم رفعه قائلا :

ـ انداء !

فضحك الطفل مكركرا ومد يده الى الطربوش يستعيد المداعبة مرارا ٠

والتفت فؤاد الى علية وهو يضم الطفل الى صدره ، فرآها تنظر اليه نظرة فيها ثقة لاحد لها ، وفيها عطف صريح ساذج كأنه من ضوء الشمس ٠ وتقابلت عيناهما فى نظرة طويلة كأنهما تتبادلان حديثا خفيا ٠ وبرقت له عند ذلك مشاعر جديدة لم يحس مثلها من قبل ولم تخطر له منذ وقعت عينه عليها ٠ كان دائما يراها فتاة مثقفة نبيلة الطبع فاتنة الحسن رقيقة النغمة مرهفة الحس ، يتمنى لو شاركته حياتهفتخرج به من عزلته وعزوفه وسذاجته فتصقل حياته وتدخل اليها مرحها وأناقتها ٠ ولكن تلك المشاعر الجديدة برقت له كأنها وميض كوكب الزهرة اذا قارنت الهلال ، فألقت فى روعه سلاما ومودة من نوع لا تشوبه شائبة من أنانية ٠ أفما كان يستطيع أن يجد سعادة اسمى من سعادة الحب فى انتكون علية صديقته على رغم الحائل الذى يقوم بينهما ؟ ألم تكن تلك المودة الصافية أبقى وأسمى متعة من محبة الاجساد التى تزول وشيكا ويعتريها الاكتفاء والسآمة ؟

وقال لها فى أعقاب نظرته الهادئة الطويلة :

ـ ماذا ترين يا علية فى أن اتدخل بينكما ؟

فأجابت فى دهشة :

ـ تقصد بينى وبين صدقى ؟

فأومأ برأسه منعما وابتسم ٠

فسكتت علية مطرقة حينا ، وانتظر جوابها متشاغلا بمداعبة طفلها ٠

وكان جوابها مترددا ، ولم تخف على فؤاد ما فيه من لهفة اذ قالت :

ـ لست فى حاجة الى اذنى يا فؤاد ، اذا رأيت ان ذلك التدخل مستحسنا ٠

فقال فؤاد متمتما :

ــ أنا سعيد بهذه الثقة .
وأضافت علية :
ــ ولكنى لست أدرى اذا كان ذلك التدخل يجدى .
وجاشت نفس فؤاد اذ تأمل موقفه الجديد منها . أهذه الثقة احب اليه أم أحلامه الاولى ؟
وسألها :
ــ أحقا قد تخلف صدقى لقضاء شئون لا تحتمل تأجيلا كما قلت للسيدة مارى ؟
فاحمر وجه علية عندما قالت :
ــ وماذا كنت تنتظر منى أن أقول للسيدة عندما سألتنى ؟ أكنت أستطيع أن أقول لها انه ذاهب وحده الى فرنسا .
فقال فؤاد فى دهشة :
ــ وهل سافر ؟
فأجابت علية فى حنق :
ــ هو ينتظر حتى يتم اعداد عدته للسفر ، مع بعض أصدقائه ان هذه الجراح تزيدنى ألما اذا تعرضت للانظار .
وتوقفت قليلا ثم أضافت :
ــ الا اذا كشفها الجريح الى صديق .
فقال فى دفعة :
ــ سأرسل اليه برقية ليأتى الينا هنا
فأجابت فى شبه يأس :
ــ أتحسبه فى مثل هذه السهولة ؟
فقال فى ثقة هادئة :
ــ لن تضر محاولتى وستكون البرقية باسمى أنا .
وكان يدرك بالهامه أنه اذا بعث تلك البرقية الى (صدقى) فانه سوف يبادر فى أول طائرة الى لبنان .
كان يدرك فى أعماقه أن ذلك الشاب على ما فيه من غرور

بنفسه لا يستطيع أن يغفل عنه وهو مع علية فى لبنان ٠

وهزت علية رأسها فى شك وقالت فى شىء من المرارة :

ـ لست أظن أنه يعبأ بشىء سوى ما ينتظره فى باريس ٠

فتبسم فؤاد قائلا :

ـ هى محاولة ٠

وكان يقول فى نفسه : « بل أنا واثق أنه سيأتى » :

وقضيا سائر اليوم فى جولتهما بالمدينة ، وعرج فؤاد على مكتب البرق ، فبعث الى صدقى يدعوه باسمه أن يحضر سريعا

ولما عادا الى الفندق فى ذلك المساء كانت علية مرحة نشيطة وقضت مع الاسرة صدر الليل فى مجلس الشرفة حتى اذا انصرف الجميع الى مخادعهم ، بقيت مع فؤاد يتحدثان أحاديث لا ينضب معينها ٠ وكانت ليلة قمراء هادئة الهواء دافئة ، وجموع المصطافين فى داخل البهو يستمتعون بعيدا عنهما بضجيج موسيقى الجاز الى ما بعد منتصف الليل ٠

ولما أوى فؤاد الى مخدعه فى تلك الليلة أحس بالسلام يغمر قلبه ٠ ولم يمض الا يومان بعد ذلك حتى جاء صدقى على طائرة ، فبلغ الفندق فى نفس اليوم الذى جاء فيه زوج ثريا أخت علية ٠

وكانت الاسابيع الاخيرة التى قضاها فؤاد فى لبنان من أسعد ما مر عليه فى الحياة ٠ كان يتنقل مع علية وأسرتها فى أكناف الجبل ، فيقيمون حيث يحلو لهم أن يقيموا ، حتى اذا ما بدأت السآمة تدب اليهم بادروا الى الانتقال الى موضع آخر يختلف عما كانوا فيه ٠ فكانوا أحيانا يصعدون الى آلاف الامتار فوق البحر فيذوقون به برد الشتاء فى قلب فصل الصيف ، ويقتربون من مواطن شجر الارز الذى شهد فى حياته طوال القرون ، ثم يصوبون الى أغوار الاودية فى جوار العيون الصافية وظلال الكروم الدافئة ٠ فكانت الايام كلها ملأى يجعلون لليوم خطته قبل أن يطلع عليهم ، حتى اذا ما استمتعوا

به رسموا خطة أخرى ليوم جديد ٠ وعادت علية الى هوايتها فكانت تختار من المناظر أبدعها فترسم خطوطها العامة فى محاولات أولى ، وتؤجل اتمامها حتى تعود الى القاهرة عندما يكون سعيد الى جانبها ٠٠
ومن العجيب أن صدقى تغير فى تلك الاسابيع تغيرا لم يكن منتظرا ، فكان يسبق الى الاستجابة الى كل رحلة ويمد يده الى كل خدمة ،ويشارك فى اشاعة المسرة فى كل منزل تنزله الاسرة ٠ وكان كلما رأى علية تصور منظرا جمع الاسرة فأخذ لها صورة فوتوغرافية يسجل فيها ما كان يسميه « اللحظات السعيدة » ٠ وكان فؤاد أشد الجميع عجبا من تغيره ، اذ وجد منه مودة صريحة لم يكن يتوقعها ، كأنه قد حفظ له حسن صنيعه فى اصلاح ما بينه وبين علية ٠ ولم يكن عجب فؤاد من صدقى بأقل من عجبه من نفسه كلما خلا اليها وتأمل أعماقها٠ كان عندما عرض على علية أن يبعث فى طلب صدقى يطيع عقله ويندفع مع حماسة طارئة بعثها فيه حديثه مع علية ، عندما حركه حزنها ودفعته ثقتها الى أن يسمو فوق حبه وأنانيته وحنقه ٠ ولما سألها سؤاله : « أتحرصين على صدقى » وسمع قولها «من أجل ولدى ! » ، جرفه فكره فأنساه كل شىء سوى أنه أمام أم تثق فيه مثل أخ لها ، فلا ينبغى له الا أن يكون عند ثقتها٠
فلما مضى ذلك اليوم واضمحلت تلك السورة عادت اليه الشكوك وكاد يلوم نفسه على أنه فرط فى حق نفسه وفى حقها مرة ثانية فساعد على اعادتها الى ذلك الزوج الذى لا يستحقها
ولكنه منذ عاد صدقى ورأى كيف عاد البشر الى علية وكيف تغير ذلك الزوج كأنه يكفر عن زلاته الماضية ، بدأ يحس نوعا جديدا من السعادة أفسح مما كان يخيل اليه ٠ أحس أن المودة الصافية التى جمعت بينه وبين علية تمتعه من السعادة بأضعاف ما كان يستطيع أن يجده فى أية صلة أخرى ، حتى لقد سأل نفسه : أليس هذا هو الحب الاوفى ؟ أليس ذلك هو الحب الذى يتحدث عنه رسل الانسانية فى غير تحرج ؟
وأراد فؤاد ان يعود الى مصر بعد ان انقضت اجازته فودع

الاسرة فى ليلة بديعة ، احتفلوا به فيها فى فندق شتورةالذى كانوا يقيمون به ، واتخذوا مجلسهم بعد العشاء الى جانب العين الصافية • وجرى الحديث بينهم دافقا كماء النبع ، وكانت علية وصدقى يتعاوران معابثته وهو منصرف الى صديقه الصغير توتو بن علية • كان الصغير متعلقا بهلايرضى أن ينزعه منه أحد ، كأنه أراد أن يشارك بنصيبه من وداعه•

فقالت علية : أتأخذه معك يا فؤاد ؟

فقال فؤاد : يكون نعم الرفيق يا علية •

فقالت : أتقوى عليه وهو يهد قوانا ؟

فقال : انه يهدأ معى كما ترين لانه صديقى •

أليس هذا حقا يا توتو ؟

فضحك الطفل بغير أن يفهم حرفا وهز رأسه ناطقا :

ـ يأ يأ •

فعلا ضحك الجميع وقالت علية :

ـ انه لا يريد ان يخدعك •

فقال فؤاد :

ـ أتحب أن تبقى مع هؤلاء يا توتو ؟

فضحك الطفل ناطقا مرة أخرى :

ـ يأ يأ •

فصاحت علية : ببغاء !

وضحك الجميع مرة أخرى وشارك الطفل فى الضحك متحمسا يكرر حرفه يأ يأ ويهز رأسه فى حماسة •

فقال صدقى :

ـ تشجع يا فؤاد حتى يكون لك مثل توتو :

فقالت ثريا :

ـ سأخطب له من تهب له مثل هذا الشعر الاشقر •

وقالت علية :

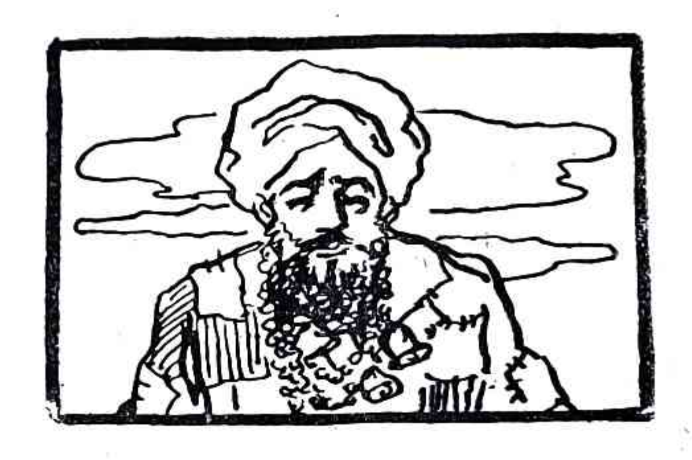
– لا · لا · مستحيل · أنا أولى الناس بأن اخطب لفؤاد من يرضاها ·

فرنت ألفاظها فى قلبه ونظر اليها نظرة شكر وهو صامت· وكان يقول فى نفسه « من أرضاها ؟ سأنتظر اذن طويلا » ·

ومضى الحديث سهلا صـــافيا الى ان هبط البرد من اعلى الجبال المجاورة · ولما أوى فؤاد الى غرفته قضى أكثر الليـلة ساهدا ·

ونزع نفسه فى الصباح نزعا ليعـــود الى مصر والجميع يلوحون له بأيديهم حتى غابت سيارته متجهة نحو بيروت ·

- ١٦ -



عاد فؤاد الى القاهرة ولقه امه فرحا مستبشرا ، وأحست الام بالهامها ما طرأ عليه من تغير فما كان أشد فرحتها . وجعل يصف لها مناظر لبنان وأهلها وأوديتها وقراها ، وهى تستمع اليه كأنها كانت تشاركه متعته فيها . وقص عليها أنباء من لقيهم هناك ، فكم أطربها تصويره للسيدة مارى وأسرتها وكم أسعدها سعيه فى الصلح بين علية وزوجها . وقالت له فى أثناء الحديث :

ـ ليتنى أجد لك عروسا مثل علية يا فؤاد ؟ ألم تفكر فى ذلك يا ولدى ؟

فقال فى نفسه : ألم أفكر فى ذلك حقا ؟
ثم قال لها باسما :
ـ ستبحث لى علية عن زوجة ترضاها .
فقالت الام فى نغمة عتاب :

ـ أتخطب لك دونى ؟ وهل تعرفك علية أو غيرها كما أعرف

ابنى ؟

فقام فؤاد فقبل رأسها ويديها قائلا :

ـ لن تكون الكلمة الاخيرة الا لك يا أمى ٠

فضمته الى صدرها دامعة العين ، وأخذت تعيد عليه أوصاف من عرفت من الفتيات من قريباتها أو بنات صاحباتها وجاراتها ولم يضق صدره هذه المرة من حديثها ، فكان يجيبها مداعبا ، وكلما ذكرت وصفا لا يشبه بعض خلق علية أو طبعها قـــال مرحا :

ـ ليس هذا طلبى ٠

فقالت أمه آخر الامر :

ـ اذن فصور لى الزوجة التى ترضاها ٠

فجعل يصف لها ملامح وجه علية وطولها ولون بشرتها وشعرها ومشيتها ونغمة صوتها وهو فى كل ذلك يتـــأمل الصورة الماثلة أمامه من خيال علية ٠ ثم قال لها :

ـ وأما روحها ٠ أما طبعها ٠٠٠

وسكت لحظة ثم قال :

ـ أما طبعها فلا أستطيع أن أتحدث عنه الا اذا رأيتها ٠

فضحكت الام قائلة : وأين نجد كل هذه الصفات مجتمعـة يا ولدى ؟

فقال باسما :

ـ سوف أنتظر حتى أعثر عليها ٠

وقال فى نفسه :

« وسأنتظر طويلا »

وخيل اليه أنه لن يضيق بالحياة اذا قضاها وحده ، قانعا بما تحقق له من مودة علية ٠

وجاء النبأ بعد أيام أنه قد نقل الى طنطا فملأه ذلك سرورا، اذ كان يستطيع وهو هناك ان يزور الاسكندرية بين حين وحين فيقضى بها يوما أو أياما ٠

ولما استأنف عمله أقبل عليه في جد وبشر . وكان كل من يلقاه يقرن تحيته بالتهنئة على ما أفاد من الصحة في لبنان .

وكانت طنطا محببة الى فؤاد منذ كان صبيا . كان يزورها مع أبيه فى أيام المولد فيقضى بها أياما سـعيدة متنقلا بين السرادقات يستمع الى القرآن وأناشيد الاذكـار ، وينشرح صدره بما فيها من أنوار وضجيج . وكانت مناظر الاسـمار وحلقات اللهو التى شهدها ما تزال ماثلة فى ذهنه مقرونة الى صورة عزيزة ـ صورة أبيه .

وكان عمله الجديد أسمى قدرا مما كان فيه ، ولهذا كان أخف عليه ، على سنة الوظائف فى مصر ، فان الوظائف تتـدرج صاعدة حتى تؤول آخر أمرها الى ما يكاد يكون فراغا بديعا ، وما جدوى الوظيفة الكبيرة اذا لم يصاحبها زيادة الاجر وزيادة الففراغ ؟

وازدحمت المدينة فى أيام المولد كعادتها كل عام ، فحن فؤاد الى ارتياد السرادقات والخوض فى زحمة البشرية الساذجة التى تخف الى ضريح الولى الكبير تطلب عنده البركة والغفران .

فكان يخرج فى كل ليلة ليستمع الى القراء وأناشيد المنشدين ويجد فيها متعة لا تشبه فى شيء ما كان يجده من الاشمئزاز اذا سمع أغاني المغنين . كان فؤاد اذا سمع تلك الاغانى نفر منها وضاق بتكسرها وتبذلها وأسأمته رتابتها وضآلة فنها . كان اذا سمع منها نغمة انقبض صدره كأنه يسمع عديدا فى مأتم حزين ، واذا سمع أخرى تقزز كأنه انتقل قسرا الى بؤرة مجون . ولكن قراءة القرآن كانت تجلو أذنيه ، وكانت أناشيد الاذكار تقع فى قلبه جليلة مطربة . وكان اذا مر بحلقات أهل القرى فى أسمارهم وملاهيهم أحس عطفا على سخافتهم وتذكر حلقات الاسمار فى النجيلة الى جانب النخيل والكوم الاحمـر وسأل نفسه : ألا أين تكون تعويضة وماذا آل اليه أمر قوية !؟

ومر ليلة بسرادق أحد الاعيان فرأى فيه زحمة ، وسمع منه

صوتا حسنا يغنى أنشودة بدوية . فوقف يستمع اليها من خارج السرادق فوجد فى نغمتها شيئا يشبه نشيدا سمعه من قبل . ثم تبين ألفاظها فجمد فى مكانه مدهوشا . أيكون هذا قوية ؟ كانت الانشودة ترن فى نغمة حزينة :

وين راح يا تعويضة طياب الريح ـ راحت وين

وين الهـلال والنـدى والدار وين الدار

كان الزمـان من زمـان نادى يروينا

شـبت لهايب عـلى الأعـواد والنـوار

جولى لى وين راحت يا تعويضة

ووثب فؤاد داخلا الى السرادق يخترق الصفوف المتزاحمة حتى بلغ صاحب الصوت فماذا رأى؟ كان قوية أمامه يبدو كأنه شيخ نحيل فيه شبه من الفتى القديم . كان أغبر الشعر ضعيفـا حائل اللون له لحية شعثاء ، يرتدى (حراما) مهلهلا من الصوف ومن تحته ثوب مرقع مختلف الالوان . وقد وضع حول عنقـه سبحة طويلة غليظة الحبات من خشب أسمر ، وهو يهز رأسه يمينا ويسارا فى غنائه ، وكلما فرغ من سمط ختم قائلا :

وين راحت يا تعويضة !

أهذا قوية الذى أمامه ؟ لم يصدق فؤاد عينيه لولا أنه يذكر تعويضة . وهاتان العينان الغائرتان وهذا القـوام المنحنى النحيل ! ما له قد تبدل مثل هذا التبدل فى عامين أو ثلاثة ؟ لكأنه قد غاب عنه ثلاثين عاما .

وامتلأ قلبه حزنا واقترب من الرجل مندفعا ، حتى اذا وقف حياله رآه يتجه اليه بنظرة خاوية ، ثم رآه يبتسم بسمة حزينة ويمضى فى غنائه الباكى . فأخذه فؤاد من ذراعه يريد ان يبعد به عن السرادق لعله يحدثه ويسأله عن حاله وعن حال امرأته المسكينة، ولكنه نزع ذراعه عنه فى رفق ولم يتوقف عن الغناء.

ـ ألا تذكرنى يا قوية ؟

فالتفت الرجل اليه باسما ومال عليه هامسا :

ـ ماتت ! ماتت تعويضة !

ثم هز رأسه واغرورقت عيناه وعاد الى الانشاد ٠ فارتبك فؤاد وهو يرى الانظار تتجه نحوه فى ريبة ، وحاول مرة أخرى أن يتجاهل من حوله وينزعه خارجا به من السرادق ، ولـكن قوية انفلت منه فجأة فخرج مسرعا كأنه يفر فرارا ٠ وهم فؤاد أن ينطلـــق فى أثره غير عابىء بمن يتهامسون ومن ورائـه ولكنـــه لم يســـــتطع أن يلحق به فقد كان يحس قدميـــه ثقيلتين وهو يسير خلفه ٠

ووقف عند مدخل السرادق ينظر فى أعقاب قوية المسكين حتى غاب بين الجموع الزاخرة ، وصعدت الى ذهنه صورة العـــــود الضئيل الذى تتقاذفه الامواج فوق اللجة المضطربة ، تقذف به يمنة ويسرة حتى تبتلعه الدوامة فى أعماقها ٠

وسار يجرر قدميه بقلب مفعم ألما ، يسأل نفسه متى عاد ذلك المسكين من منفاه ؟ وهل ماتت تعويضة حقا ؟ وكيف عرف المسكين مصيرها ، مع أنها اختفت منذ نفى فلم يعثر أحد عليها ؟ ألا يكون هو الخيال المضطرب الذى يصور له أنها قد ماتت لانه عاد من منفاه فصدمته غيبتها ؟ وأطرق يسير حزينا بين الناس لعله يعثر عليه فى سرادق آخر أو فى حلقة من حلقات الاذكار أو فى مسجد السيد البدوى ٠ ثم سمع من خلفه اسم ابراهيم ميسور ، فلما التفت رأى جماعة من أهل الريف يخرجون من السرادق وهم يتحدثون ٠ فتريث حتى حاذوه ، ونظر اليهم فسكتوا ونظر بعضهم الى بعض نظرة ارتياب ٠

فنادى فى صوت حزين :

ـ أتعرفون هذا ؟

فسكتوا ونظروا اليه نظرات خاوية فيها شىء من الخوف ٠

فقال فى رنة تودد :

ـ كنت أعرفه قديما وكان لى صاحبا ٠

وكانت نبرات صوته صادقة ، فاقترب واحد من الجمع اليه وقال :

ـ أين عرفته يا أفندى ؟

فقال فؤاد :

ـ ألم تسمع عن عزبة الافندى ؟

فقال آخر من الجمع :

ـ أما قلت لكم أنه هو ؟

وتقدم نحوه قائلا :

ـ ألست سى فؤاد ؟

فتبسم فؤاد بسمة ضئيلة وهز رأسه سائلا :

ـ أتعرفنى ؟

فقال الرجل : أنا من كفر حصام ، وقد رأيتك مرة فى عرس تعويضة .

فغض فؤاد بريقه ، وأقبل عليه كما يقبل على صديق ومد له يده مصافحا . واطمأن الجميع اليه بعد استرابته وساروا الى جنبه يتحدثون فى سذاجة .

وسأل فؤاد :

ـ أتعرف أين يقيم قوية ؟

فقال الرجل :

ـ حيث يبلغ به السير ، فهو يضرب فى الارض منذ عاد من منفاه .

فقال فؤاد :

ـ لو ساعدتنى على اقتفاء أثره كانت مروءة منك .

فرضى الرجل واستأذن أصحابه وسار مع فؤاد يخوضان زحام المولد ، ومضى الرجل فى حديثه فقال فى عطف :

ـ الله يلطف به !

فسأله فؤاد :

ـ أتعرف متى عاد من منفاه ؟

فأجاب الرجل :

ـ منذ سنتين . ولكنه لم يكن هكذا . لم يكن نحيلا أغبر كما رأيته الان .

فقال فؤاد فى لهفة :

ـ وهل ماتت تعويضة حقا ؟

فأجاب الرجل :

ـ هكذا قال قوية . فانه بعد عودته سأل أهل القرية عنها فلم يستطع أحد أن يدله عليها . فسار الى مريوط لعله يجدها هناك ، ثم عاد كما رأيته يخلط ويغنى ويبكى . وأصابته (جذبة) فلبس ثيابه المرقعة ووضع السبحة حول عنقه ، فلا يراه أحد الا فى الموالد أو عند مقابر الاولياء .

وصمت فؤاد حزينا كأنه أصيب بكارثة فى حميم . ومضى الرجل فى حديثه قائلا :

ـ وهو يذهب الى النجيلة أحيانا فيأتى الىجانب الكوم حيث كان يضرب خيمته ، ويقضى هناك ليالى فى العراء ينشدأناشيده الحزينة كما سمعته الان .

فقال فؤاد فى صوت خافت :

ـ أما كنتم تتحدثون عن ميسور ؟

فعادت الى الرجل نظرة الريب وقال مترددا :

ـ هى أقوال نسمعها .

فقال فؤاد مشجعا :

ـ أيقولون انها ...

وصمت ناظرا اليه كأنه يناجيه بسر .

فقال الرجل هامسا :

ـ نعم يقولون انها قتلته ، لانه تعرض فى الليل لها . ثم هامت على وجهها .

وكانا قد بلغا مسجد السيد البدوى فخلع فؤاد نعليه وقال للرجل :

ـ ألا نجده هنا ؟

ودخلا بين الجموع الزاخرة فزارا المشهد وطافا بأنحاءالمسجد فلم يجدا من قوية أثرا . وأحس فؤاد خشـــوعا حزينا فذهب ليتوضأ ، ثم صلى عند مقام السيد ركعتين لله ، واتجه بقلبه الى تعويضة وقوية لعل الله يرحمهما .

ولما قام يريد العودة الى بيته لم يطعه قلبه الموحش فذهب الى سرادقات المولد ليذهب وحشته فى أنوارها اللامعة ويســتمع خاشعا الى آيات القرآن . وكانت قطرات من رذاذ المطر تتطاير الى وجهه ، وسماء الخريف الغائمة تلف السماء بثوب حزين . فسار مسرعا يحس ارتياحا للقطرات الباردة التى ترف عــلى جبينه ، وهبات الهواء البارد الذى كان يتسرب الى صـــدره المضطرب .

وكانت صورة قوية وتعويضة تتمثـــلان آمامه فى ذكريات شتى تتزاحم فى خياله يجللها السواد ، وصورة لجة الماء تبدو الى جانبهما وعلى سطحها عود ضئيل من الشوك يتخبط عــلى الامواج ، وكانت هناك زهرة فى العود الضئيل تضطرب فى اللجة الغائرة ثم تبتلعها الدوامة العنيفة فى جوفها .

الكتاب الذهبى

العدد الحادى عشر ـ ابريل ١٩٥٣

يصدره نادى القصة

عن دار روز اليوسف

١٨ شارع محمد سعيد

تليفون : ٢٠٨٨٦ ـ ٢٠٨٨٧ ـ ٢٠٨٨٨

الاشتراكات :

مصر ١٢٠ قرشا عن سنة ـ ٦٠ قرشا عن نصف سنة .

الخارج ١٨٠ قرشا عن سنة ـ ٩٠ قرشا عن نصف سنة .

الاعلانات يتفق عليها مع الادارة

رئيس التحرير المسئول : سعد الكفراوى خليل

حديث الشهر

يشهد الناس في هذه الايام معركة أدبية يتردد صداها بين أعمدة الصحف والمعركة قد بدأها الدكتور طه حسين بمقاله عن محنة الادب • أهاج به الشبان الادباء • وأعترف أن المقال قد أهاجني ضمن من أهاج وكاد شـيطان الكتابة يدفعني الى كتابة رد لولا ان صرفتـه بالحسنى الى كتابة قصة وقلت له هذه أبع لنا وأجدى • وأهديت للدكتـور وقتذاك ـ وكان على وشك السفر الى أوروبا ـ كتابي أرض النفاق الذي ارضى الكثير من المفكرين والنقاد على أن أقدم له دليلا عمليا على أن الادب في غـير محنة • وان كل ما في الامر أن أدب الشبان لم يتشرف بالمثول بين يديه حتى يصدر حكمه عليه •

والتقيت بعد ذلك بالدكتور طه وعلمت أنه لم يقرأ الكتاب لانه صدم في أوله بذكر « آكلة ملوخية » فلم يستطـع اتمام الكتاب •

وأهديت اليه بعد ذلك كتـاب اني راحلة فتكرم بقراءته والكتابة عنه ثم كتب بعد ذلك عن كتب للزملاء أمين غراب ونجيب محفوظ ولاشك أنه شرفنا بنقده ولاشك أيضا أنه شعر كما قال في احدى مقالاته انه كان مقصرا في حق الشبان الادباء وأنه حكم عليهم دون ان يقرأ لهم

ولقد اشتدت المعركة بعد ذلك بين الدكتور وبين الشبان • وبدت صدورهم موغرة منه ومن شيوخ الكتاب ، ولهم العذر في ذلك • فقد أحدث الكبار بينهم وبين الصغار فجوة كبيرة •• فوقفـوا منهم موقف الخصوم • وقد كان أولى بهم أن يقفوا منهم موقف الآباء الذين يحنون على الابنـاء ويقومونهم ويرشدونهم ويسعدون بهم •

ولكن ما حدث فيما مضى كان ترفعا واستكبارا من الشيوخ نتج عنه ضيق وبغض من الشباب • ولو توثقت عرى الصداقة بين الجيلين لشعر كل منهمـا أنه تتمة للاخر •• واستطرادا له •

وكل ما أرجو ان تجمعهم كل جمعية الادباء التي نحن بصدد انشائها لجمع شملهم ولم شعثهم •

يوسف السباعي